# شُوهِدَ من قبل

عنوان الكتـــاب: **شُوهدَ من قبل**
اســـم المؤلـــف: **حسام الغزالي**
المـوضـــــــوع: **روايـــة**
عدد الصفحات: **188 ص**
القيـــــــاس: **14.5 × 21.5 سم**
الطبعـة الأولى: **1000 / 2021 م – 1442 هـ**
**ISBN: 978-9933-38-246-9**

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى
**Copyright ninawa**

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب **4650**
تلفاكس: **+963 11 2314511**
هاتـــف: **+963 11 2326985**

**E-mail: info@ninawa.org**
**ninawa@scs-net.org**
**www.ninawa.org**
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
**Ayman ghazaly**

**العمليات الفنية:**
التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة – القسم الفني: دار نينوى

**لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.**

حسـام الغزالي

# شُوهِدَ من قبـل

رواية

هذا الكتاب برمّته يعود إلى المجهول،
فلن تصدقوه

"أتمنى أن يقتنعَ جزءٌ ما في داخلي، أنه لا يُمكنني العودة إلى الماضي، ولا إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، وأن يكفَّ عن رسم تصورات لم تحدث ولم يعد بإمكانها أن تحدث، حتى وإن كانت تُسعده، لأنها تدميني عندما تنتهي إلى لا شيئ، أتمنى أن يوقن ذلك الجزء الموغل في قلبي، أن الزمن يسير باتجاه واحد، وأنه لا شيئ أصعب على الإنسان من أن يحلم بماضٍ لن يعود، وأن يفعل ذلك في كل ليلة".

**ديك الجن**

"قوة الإدراك في عقولنا محدودة جداً، والندوب التي أصابتنا وتُصيبنا هي ما تُنبؤنا بالمستقبل، فحياتنا ليست سوى كذبة بيد الزمن"

**المؤلف**

من "برهـان" إلى "سـيمان"..

حين تقرأ هذه الرسالة سيكون كل شيئ قد حدث بالفعل وبشكل لا رجعة فيه، وستعرف أن الحقيقة شيئ غريب، لأنها غير موجودة في الأصل، ولكي نستطيع فهم وإدراك معنى الحقيقة أوجدنا حقيقة واهية وهمية في عقولنا، حقيقة نحبها وتحبنا، وعلى مدى العصور حاولنا ومازلنا نحاول تلميع صورة هذه الحقيقة وشكلها، وأن نجعلها تشبهنا حسب بيئاتنا، إلى أن وصلنا إلى مرحلة لم نعد فيها قادرين على تصديق أي شيئ سوى أن هذه الكذبة حقيقية، فلم يعد بإمكاننا التراجع، ولم يعد بإمكاننا فهم ألغاز هذا العالم المتغير.

فهنا كل شيئ أوشك على البدء، وربما النهاية، فنحن أصحاب طبيعة بشرية مُعقدة، نجمع المال ونبني البلاد، نخترع ونُطور، كل هذا من أجل أن نصل إلى مرتبة المنقذين..

والمنقذ هنا هو الذي يقتل من البشر أكثر من أجل مكانه الزماني ضمن فرصة الحياة التي حصل عليها.

فقتلنا للآخرين بدأ مُذ كنا نطفة، قاتلنا حتى ربحنا فرصة للسفر عبر الزمن ضمن دائرة محيطنا هذا، لذا تبدو بعض الأشياء التي نفعلها وكأنها ذات طبيعة شريرة، لكنها في الحقيقة هي الخير بذاته من زاوية أخرى.

إننا نبدأ فيما نظن أنه ظلام لننتقل إلى ما نظن أنه نور، ثم نعود إلى الظلام وهكذا دواليك، ففي الظلام نفقد إداركنا للوقت، وفي النور نستعيد إدراك الوقت لدينا.

وفوزنا بهذه الحرب يحتاج إلى التضحية، فما دمنا في حلقة الزمن سنكرر أنفسنا دوماً كما حدث بالضبط من قبل.

فأنت وأنا وهو وهي إنسانيون، والإنساني لا يتصف بالإنصاف بتاتاً، إننا ننتمي للظلام الأبدي وليس للنور، وما وجودنا في النور إلا فرصة زمنية نستغلها لأبعد حدّ ممكن لنعود بعد ذلك إلى مكاننا الظلامي..

إنها فرصتنا الزمانية، فرصة كحقل لانهائي من الدوائر، دوائر وجسيمات صغيرة من الطاقة، جسيمات تعطي لكل شيئ حيّ كتلته.

إننا اليوم أقرب إلى خلق عالم جديد من دون زمن، لنصبح أبديين، لكن يبقى الموت هو الشكل الوحيد الذي يتوقف فيه الزمن ضمن أجسادنا الجامدة، بينما نكون في نفس اللحظة قد انتقلنا إلى مكان زماني جديد وهكذا..

وما يزود الزمن بالطاقة هو نحن بحركتنا وتطورنا وقتالنا وحروبنا، نُنتج الطاقة للزمن، والزمن يمنح الجسم الحركة.

إننا أولاد الحركة والزمن معاً نمنح هذا الكون الحركة بشخصيات يصوغها الألم والرغبة فينا، لكن لن نستطيع تحرير أنفسنا من العبودية الأبدية لمشاعرنا مادامت تَسعرُ عاصفة المعرفة بداخلنا، لن نحصل على السكينة أبداً لا في حياتنا ولا في مماتنا الافتراضي، وهكذا يوماً بعد يوم سنفعل ما يجب أن نفعله، فالألم سيبقى سفينتنا والمعرفة بوصلتنا، وسنبقى أسرى هذه المعرفة لأننا جزء لا يتجزأ من الماضي والحاضر والمستقبل.

إننا ضمن لعبة قذرة لعبة نظنها مقدسة، وقمة قذارتها تكمن في ظننا أننا سنصل يوماً إلى الفردوس المزعوم، لكن الفردوس لا يلائم طبيعتنا البشرية، فنحن أولاد الأنانية، وبأنانيتنا تطورنا.

إننا أبناء لعبة الطبيعة التطورية ولن نستطيع الهرب يوماً من إطار هذه اللعبة، لذا سنبقى قذرين بقذارتها، نظن أن فعل الخير هو الذي نفعله، والشر من يفعله الآخرون، فهنا لا خير حقيقياً ولا شر حقيقياً..

والسؤال الذي علينا أن نسأله لأنفسنا هو:

**ليس في أي عام ولدنا، بل من أي مكان أتينا.**

* * * * *

# الفصل الأول

**العام: ٢٠٠٦**
**التاريخ: ٠٢- أبريل/ نيسان**
**الزمن: ١٤:٠٠**

على متن الطائرة الكبيرة، المعلقة بين السماء والأرض، ودون سابق إنذار، تسلل إلى جسدي شعور بارد غريب، فأسندتُ رأسي إلى الخلف مسترخياً، لكن بدني اقشعر منتفضاً من هذا الإحساس.

شعرتُ وكأن هذه اللحظة التي أمر بها الآن قد تكررت معي سابقاً، رغم أنها المرة الأولى في حياتي التي أسافر فيها على متن طائرة..

شعرتُ وكأنني شهدتُ هذا من قبل، كأن الصور تتكرر بحذافيرها أمامي، لون مقاعد الطائرة، صدى أزيز محركاتها من الداخل، نفس الركاب، ونفس المُضيفة، ونفس ابتسامتها ونظراتها وهي تقدم لي العصير...

وَمَضَ هذا الإحساس فجأة داخل دماغي، إحساس غريب، واضح، وكأنني أعيش مشهداً للمرة الثانية، مشهداً كنت قد نسيته والآن أعود فأستذكره، ثم رافق شعوري هذا حدسٌ دقيق وكأنني أعرف ما سيحصل بعد قليل...

وفجأة اختفى هذا الوَمَض، لكن شعوري بأن هذه اللحظة تتكرر معي بقي ثابتاً في تفكيري.

*****

حطت طائرة الخطوط الجوية الكويتية في مطار العاصمة "الكويت" قادمة من "دمشق".

على متنها كان "برهـان" يشعر ببعض الحزن والخوف معاً، إنها المرة الأولى التي يغادر فيها وطنه بحثاً عن العمل.

أنهى دراسته الجامعية بتفوق ملحوظ، وصار لزاماً عليه السفر، فالآن وفي بلده لم يعد أمامه سوى الإلتحاق بخدمة العلم، وهذا الشيئ الذي لن يقبله بتاتاً.

كثيراً ما فكر أن خدمة العلم في بلده ليست سوى مضيعة للوقت، إنها تأكل السنوات الذهبية من عمره، فبعد الانتهاء من دراسة الجامعة وبدل أن يبدأ تطبيق ما تعلمه عملياً وتكوين ذاته وشخصيته وتطورها في سوق العمل والمهن، عليه أن يرتدي الزي العسكري وينطلق إلى مستقبل مجهول، مستقبل قد يمحو ذاكرته العلمية والعملية، وحينها سيتراجع إلى الخلف بوضعه المالي والنفسي والجسدي وحتى العلمي.

كانت الساعة تشير إلى الثانية ظهراً بتوقيت "الكويت"، عادة ما يكون الجو معتدلاً في مثل هذا الشهر من السنة، إلا أن طقس "الكويت" يختلف عما نعرفه، إنها المرة الأولى التي شعر فيها بكل هذه الحرارة تتدفق إلى جسده وأنفه حال نزوله من سُلم الطائرة ليصعد إلى الحافلة التي ستقله إلى قاعة ختم الجوازات.

بضعة أمتار مشاها ما بين سُلم الطائرة والحافلة كانت كفيلة بإيضاح رسالة الحرّ التي تعتري هذه البلاد.

مطارٌ مزدحمٌ بالرحلات القادمة من بقاع العالم، جنسيات وألوان بشرة مختلفة، أغلب من يسافر إلى دول الخليج جاء ليعمل وسط حرارة لا تقل عن الخمسين درجة مئوية في الظل مقابل أجور عالية لا يحلم بها في بلده، إنها بلاد النفط والشمس.

لقد استطاع من خلال أحد أقاربه في "الكويت" أن يحصل على دعوة عمل تجريبي ضمن إحدى المجلات العربية التي تصدر داخل الدولة، وهي المرة الأولى التي يغادر بها بلده، تاركاً حبيبته "صوفيا" التي عقدت معه الآمال على أن يُحَسِّن وضعه المادي ليكون قادراً على خطبتها بشكل رسمي من أهلها.

وهي المرة الأولى التي سيفارق بها والدته التي لا يستطيب طعاماً إلا من طهيها، وأخته "سمر" الطالبة في المرحلة الثانوية، فتاة رقيقة وجميلة وهادئة، وصغير العائلة "بلال" المشاكس المدلل في المرحلة الإعدادية، والمتعلق لدرجة الجنون بألعاب الفيديو والألعاب الإلكترونية.

هجرهم والدهم قبل عدة سنوات مضت في ظروف غامضة، وحملت الأم عبئ ومسؤولية الأسرة كاملاً، رافضة أن تُدلي بأي معلومة حول السبب الحقيقي وراء مغادرة الأب الفجائية، مدعية أنه سافر مع امرأة أخرى اختارها ليكمل معها حياته.

ما إن تجاوز حاجز التفتيش واضعاً لصاقة "الفيزة المؤقتة" على جواز سفره، حتى انبثق أمامه أصدقاء وأقرباء كثر كانوا بانتظاره ضمن قاعة استقبال الضيوف، لم يتوقع قدوم كل هؤلاء لاستقباله، رحبوا به بحفاوة، ثم حملوه في إحدى سياراتهم الفاخرة وانطلقوا جميعاً لتناول الغداء، فهنا ينتظر الأصدقاء قدوم أحد أصدقائهم أو أقربائهم ليجتمعوا سوياً مُرحبين

بالزائر كي لا يخالجه شعور الاغتراب بتاتاً، وهذه من أجمل العادات والتقاليد التي مازال الكثير يحافظ عليها في بلاد المهجر البعيدة وبلاد التغرب القاسية.

*****

مع مرور عدة أيام بدأتُ أتعرفُ إلى معالم دولة الكويت الصغيرة، شوارعها وطرق الوصول إلى الدائري والمناطق المقسمة بانتظام ضمنها.

كما وبدأت العمل في المجلة ضمن فترة تجريبية، وصرت قادراً على الذهاب والعودة لوحدي، والتعود على حرارة الجو التي كانت تزداد يوماً بعد يوم، كما صار بإمكاني التجول بين المناطق وزيارة المكتبات والمحال التجارية.

عند انتهاء العمل قبل كل مساء، أغادر بناء المجلة نحو المنطقة الصناعية الخاصة بإصلاح السيارات وبيع قطع تبديلها، أصعد حافلة حمراء حديثة تحمل رقم المنطقة المتجه إليها.

أغلب من يتنقلون هنا بالحافلات هم أصحاب الرواتب المحدودة والبسيطة، كالعمالة الهندية والإثيوبية والبنغلاديشية، وبعض الجنسيات العربية الذين لم يحالفهم الحظ بإيجاد عمل يوفر لهم دخلاً مناسباً لشراء السيارة، رغم أن الحصول على السيارة هنا من الأمور السهلة والمُيسرة بشكل كبير.

أما أنا كان فقد كان بإمكاني شراء سيارة من خلال ما سأحصل عليه في عملي، لكن الشرط الأول الذي عليّ تجاوزه هو أن أمتلك إقامة سنوية تخولني شراء سيارة واستئجار شقة صغيرة.

ضمن المنطقة الصناعية استطاع بعض أقربائي وأصدقائي إدارة محلات صناعية لتصليح السيارات، ورغم أن المنطقة مكتظة بالعمالة ورائحة زيوت المحركات وأصوات المطارق وازدحام السيارات المتكومة للتصليح والتي تزيد من حرارة الجو في المكان، إلا أنني كنت أشعر بالمتعة هنا، فالمرح والضحك والعفوية التي يتعامل بها الناس في هذا المكان كانت تمنحني شعوراً مُريحاً وكأنني بين أصدقائي في مدينتي.

بعد غياب الشمس بدقائق كنا نصعد جميعاً في السيارات المتشابهة تقريباً ونعود إلى الشقق السكنية الصغيرة لإعداد طعام العشاء.

يوماً بعد يوم صرت أتعرف على المزيد من الشباب أصحاب المحال الصناعية الأخرى ومن جنسيات مختلفة، وكان من بين الأشخاص الذين تعرفت عليهم وازدادت رابطة الصداقة بيننا رجل خمسيني اسمه "سـيمان"، ويُكنى في السوق الصناعي باسم "سليمان الإيراني" كونه قادم من إيران، فما بين اسم "سـيمان"، و"سليمان" حرف اللام فقط، وهو الفارق الذي شكل اختلافَ النطق بين اللغة الفارسية والعربية.

"سـيمان" رجل طيب بشكل لا يوصف، كريم وصاحب خلق ودعابة، أصوله فارسية، ومسقط رأسه من إحدى القرى الحدودية في مدينة "جيلان" الإيرانية، ويتكلم العربية والفارسية بطلاقة.

بدأت علاقتي به تزداد قوة يوماً بعد يوم، وصارت مواضيع الحديث بيننا تزداد متعة أكثر وأكثر.

كل يوم وبعد وصولي إلى المنطقة الصناعية، يأتي "سـيمان" ليدعوني لشرب الشاي في محله الملاصق لمحل أقربائي، بحجة أن أقربائي لديهم عمل

كثير ومتواصل، أما هو فعمله مقتصر على بيع قطع التبديل للسيارات كبيرة الحجم، ولديه الكثير من وقت الفراغ في انتظار زبائنه لبيعهم البطاريات أو القطع الكهربائية.

مهنة "سـيمان" لم تكن شاقة كباقي المهن الصناعية، فما يفعله هو الجلوس في المحل وانتظار زبائنه القادمين من أغلب مدن "الكويت"، فكان يشغل وقته بالقراءة أو بدعوة الأصدقاء لشرب الشاي، خاصة أنه أنشأ مكتبة صغيرة الحجم في زاوية محله واضعاً فيها العديد من الكتب العربية والإنكليزية والفارسية، والتي أضافت للمكان جمالاً فنياً وذوقاً مميزاً.

بما أن أغلب أصحاب المهن هنا منشغلون بالعمل، وجدَ "سـيمان" فيَّ الصديق المفضل لتمضية الوقت معه، خاصة حين عرف أنني أحمل شهادة جامعية وأحب القراءة، وتستهويني الأحاديثُ التي تتكلم عن بعض العلوم خاصة الأدبية والدينية والتاريخية.

علاقة الصداقة التي تشكلت بيني وبينه رغم فارق العمر الكبير كانت إحدى الأمور التي استغربتها من نفسي، لكنه في الحقيقة كان صادق المشاعر وبسيطاً للدرجة التي تجعل كل من يقابله يطمئن له، كما أن الحديث معه ممتع ومسل، وكثيراً ما يخلق نكات جميلة في حديثه جاعلاً الحوار أكثر متعة.

في الحقيقة علاقة الصداقة التي تشكلت بيني وبينه رغم فارق العمر هي التي ستغير حياتي كلياً مستقبلاً.

كل يوم وبعد وصولي يجلس "سـيمان الإيراني" بالقرب مني وقد أحضر كوبين من الشاي، يبتسم ويبدأ يحدثني عن الحياة والحب والإرادة والتطور والتكنولوجيا والدين والسياسة، كان مُلماً بكل هذه الأمور، إذ أنه

يعرف من الإسلام والمسيحية واليهودية الأمور الكثيرة، ويسميها الديانة الإبراهيمية، ويعرف الكثير عن الزرادشتية والهندوسية وطبقاتها، وكذلك البوذية وديانة السيخ والمذاهب التي تتشعب إليها هذه الديانات، والأساطير التي انبثقت عنها.

*****

ذات يوم تطور الحديث بيني وبينه إلى أن قرر إهدائي شيئاً غريباً، هدية تمنيت لو رفضتها ولم أقبلها.

فأثناء حديثنا عن الفلاسفة الإغريق قال لي بعد أن أضاف أوراق النعنع إلى الشاي:

- إذاً أنت تؤمن أن الفلاسفة الإغريق كانوا سباقين في وضع نظريات مهمة حول هذا الكون، وهم أول من اكتشف أن الأرض كرة مستديرة وأن الحركة بين الشمس والأرض هي حركة أهليلجية قبل ظهور الديانات الإبراهيمية ونفيها لكروية الأرض.
- نعم، أنا مؤمن أن الفلاسفة الإغريق وصلوا إلى حدود علمية لا يُستهان بها، ولا ننسى أن "بطليموس الأول" هو من بنى مكتبة الاسكندرية التي كانت متفوقة ومتقدمة في علوم الفضاء والكون وحركة الكواكب، وأن المبشرين المسيحيين حين دخلوها أحرقوها مدعين أن كل هذه العلوم تُغضب الربّ، فغيروا من علوم تلك الحقبة بشكل خاطئ خاصة ما كُتب حول نظريات حركة الشمس والقمر وشكل وحركة الأرض.

- آآه جيد، وهل ترى أن الإبراهيمية كدين أخذت من الزرادشتية الدين التوحيدي الأول الذي ظهر في بلاد فارس؟
- في الحقيقة لا أعرف، كوني لم اطلع على الزرادشتية بشكل مفصل.

قام من مكانه واتجه نحو ثلاجة صغيرة في زاوية محله وسألني:

- هل أنت جائع؟؟
- لا، لقد تناولت طعامي قبل قليل.

حمل صحناً فيه قطع من أوراق الخس، وبدأ يلتهمها وهو يقول:

- هل تعرف ما هو أعظم جوع في الحياة؟

ابتسمت وقلت له:

- ربما الجنس، كوننا شعوب مكبوتة جنسياً بفعل العادات والديانات.

ضحك ضحكة صاخبة وقال كلاماً أشبه بنظريات الفلاسفة:

- إن أعظم جوع في هذه الحياة ليس للجنس أو الطعام أو المال أو النجاح أو الحب أو الأمان، إننا نحصل على ذلك كله في كل يوم، ورغم ذلك نشعر أننا مازلنا متعطشين لإشباع جوع أعظم وأكبر.

حركت رأسي بالموافقة رغم أنني لم أعرف قصده بالضبط، فتابع يقول:

- إن أعمق نقطة إحساس بالجوع في الحياة هو لسرٍّ يشغل بالنا جميعاً، والكل يردده بطريقة لاواعية، فأنت مثلاً ولربما في يوم من الأيام قلت لنفسك، لو يعود الزمن بي إلى تاريخ كذا وكذا لفعلت كذا وكذا، أليس كذلك؟

ضحكت في نفسي من كلامه وأجبت بالموافقة قائلاً:

- إذاً أنت تظن أن الجوع الحقيقي الذي يبحث الإنسان عنه هو العودة في الزمن إلى الوراء.
- لا ليس العودة في الزمن إلى الوراء، بل السيطرة على الزمن والتنقل فيه ذهاباً وعودة.

عدت وضحكت مجدداً، فأنا أعلم أن هذا الكلام لا يعدو أن يكون فلسفياً وفرضياً غير قابل للتحقيق أو التصديق بتاتاً، ورغم محاولات علماء الفيزياء لمعرفة كينونة الزمن والمكان أو الولوج والسفر عبر الزمن، إلا أن جميع محاولاتهم فشلت، هكذا عرفت، أو هكذا كنت أظن.

عاد وأكمل:

- الزمن يا صديقي هو الجوهرة التي يبحثون عنها.
- من هم؟
- المُنقذون، أو هكذا أسميهم.
- ومن هم هؤلاء المنقذون؟
- إنهم المسيطرون على واقعنا وتطورنا وجميع علومنا، ورغم ذلك فهم يخفون عنا الكثير من الحقائق، فكل هذه الاختراعات التي صنعها البشر مردها أنهم عرفوا أشياء جديدة في علم الزمن، والحياة التي نعرفها هي طبقة رقيقة من الأحداث تغطي حقيقة أعمق، فالحقيقة هي كل ما حصل، وليس كل ما كان متوقعاً أن يحصل.

سار بضع خطوات إلى مدخل المحل، ونظر متأملاً شموخ أبراج الكويت بكراتها الزرقاء العالية وقال:

- انظر يا "برهـان"، انظر إلى رموز النهضة والارتقاء، من بنى هذه الصروح والأبراج والمعالم هو بالضرورة نفسه الذي شيد وصمم الأهرامات في مصر، وبنى برج بابل والحدائق المعلقة في العراق، والقلاع والحصون التي مازالت ثابتة قوية إلى يومنا هذا.

ظننت أن كلامه يحمل في طياته بعض السخرية والمرح، فضحكت بصوت مسموع وقلت له:

- إذاً تظن أنهم يسرقون مخططات البناء ويطوفون بها بين الأزمان ليروا من يدفع لهم أكثر.

عاد ونظر إلي نظرات فيها إصرار وجدية:

- برهـان، لا تتهكم أو تهزأ بهذا الكلام، إنهم المنقذون، وأنا وأنت منهم.

لم اتمالك نفسي، فانفجرت بالضحك بشكل واضح، ثم قلت له متسائلاً:

- "سـيمان" ماذا تقول يا رجل!!، هدئ من روعك، منقذ ماذا؟ ومسافر ماذا؟.. ما هذا الكلام؟، هل أنت مؤمن بما تقول؟
وحتى إن كان كلامك صحيحاً فما يهمنا من كل هذا الحديث؟!!.. فأنا إن كنت قادماً من المستقبل أو الماضي فالأمر لا يهمني كوني لا أتذكر، وبما أنني لا أتذكر فلن يؤثر ذلك عليّ أبداً.

وضع صحن أوراق الخس من يده، ثم تنهد قليلاً ليكمل حديثه وقد بدت عليه معالم الجدية والحزن معاً:

- منذ أن ولدنا أنا وأنت، كان لدينا سيل متواصل من العلامات التي تشير إلى عالم آخر داخل أنفسنا، ألم يسبق أن انتابتك الدهشة في لحظة ما، حيث شعرتَ وكأنك تعرف هذه اللحظة مسبقاً أو تشعر وكأن لحظة ما تتكرر معك؟؟!!.

حين نطق جملته هذه؛ تذكرت على الفور ذلك الإحساس الأخير الذي وَمَض في دماغي أثناء رحلتي في الطائرة، حينها شعرت وكأن تلك اللحظة قد تكررت معي سابقاً، تكررت بحذافيرها، لكن السبب معروف لي، هكذا عرفت أو هكذا كنت أظن، فأجبته على الفور:

- "سيمان" صديقي، كلامك هذا صحيح، كلنا يشعر أحياناً بومضات غريبة، ومضات يشعر فيها وكأنه يعرف هذه اللحظة مُسبقاً، وهي تسمى علمياً "بوهم سبق الرؤية"، أو "دي جافو" الكلمة الفرنسية التي تعني "شُوهِد من قبل"، وبحسب ما فسرها العلماء فهي بسبب تسجيل إحدى العينين لمشهد ما أسرع من العين الأخرى، فيُخيل إلينا بأننا رأينا هذا الموقف من قبل...

قاطعني قبل أن أكمل تفسيري غير الواضح أصلاً حول ظاهرة "وهم سبق الرؤية" وأخذ يتحدث بجمل غريبة:

- لا ، إنها إحدى أخطاء الزمن الذي يسير من حولنا، ثغرة بسيطة بإمكانك الولوج فيها والتجول كيفما تشاء، وهذه الأخطاء الزمنية إشارات لا تُعد ولا تُحصى تأتي دائماً في طريقنا، ونغفل عنها لأننا نظن أنها لا تشكل رسالة حقيقية أو رسالة واضحة، ولو أمعنت التركيز

في هذه الثغرة ستتنبأ بأشياء أكثر، فهل التنبؤ الذي ينتابك أثناء هذا الوميض هو وهم سبق الرؤية أيضاً؟؟.

ابتسمت له مجدداً مُبدياً من ابتسامتي أنني لا أصدق مثل هذه الأشياء، خاصة في زمن العلوم والتكنولوجيا الذي نعيشه، فقلت له:

- لكن جميع ما تتحدث به ليس سوى فرضيات تحتمل التصديق والتكذيب معاً، ولا يوجد إثبات حقيقي على صحتها.

لم يغير من جديته وحزنه في طرح هذا الموضوع، إذ بدا أنه مهتم للغاية بسرد ما يعرف حول الزمن أو ما سيتكلم به لاحقاً.

- معك حق، وكلامك أيضاً حول "وهم سبق الرؤية" هو افتراضي ولم يتم إثباته إلى الآن.
- إذاً لا يمكننا الاستمرار بالحديث عن فرضيات لا تحمل أي دليل.

ابتسم بسخرية وقال:

- من مكانك هذا تستطيع أن تطلق على ما أتحدثُ به أنه لا يعدو فرضية، ولا يمكن أن يتطور ويصبح نظرية، أما أنا ومن مكاني هذا أستطيع القول إنني التقيت بعدد كبير من الأشخاص الذين يملكون قوة روحية، ويستطيعون تذكر حيوات أخرى بكل دقة، أو شاهدوا كائنات نورانية وتحدثوا إليها، أو سافروا إلى أبعد من أجسادهم المادية، أو يتحدثون مع أقربائهم الموتى، وهذه ليست مبالغة وإنما هي شهادات من استطلاعات عامة في جميع المجتمعات التي نعيشها وعلى اختلاف معتقداتهم وديانتهم وحتى أزمنتهم، وأعرف ما هو أعمق

من ذلك، فهناك أشخاص يقومون برحلات سرية حقيقية إلى واقع منفصل عن الزمن، ولكن من الصعب أن يعترفوا بذلك أمام العامة.

ارتشفتُ رشفةً من الشاي وابتسمت لجديته المفرطة وقلت له مُحاولاً تهدئة توتره:

- ربما يوجد مثل هذه الأمور في حياتنا، ولكن تخيل أن شخصاً ما بإمكانه عبور الزمن كما تقول، ماذا سيحصل حينها؟ ستتغير أحداث هائلة في حياتنا، ألا تعتقد ذلك؟، افترض أن أحدهم سافر إلى الزمن الماضي ومنع زواج أمه من أبيه، وهذا بالضرورة سيمنع وجوده في المستقبل، إنها معادلة مستحيلة الحل، أليس كذلك؟

رفع رأسه وتأمل زاوية خاوية للحظات، شعرتُ أن عينيه لمعتا بغرغرة من دموعه المخفية، ثم قال بمشاعر صادقة:

- لا أحد بإمكانه عبور الزمن وتغيير الأحداث.

حركت رأسي بالموافقة، وعدت لارتشاف الشاي لعله يغير مجرى هذا الحديث الذي لا يبدو أن نهايته سعيدة، لكنه تابع كلامه بأداء فلسفي بحت:

- الزمن هو الله، هو الماء الحقيقي في هذا الوجود، هو رحيق مقدس، والإنسان بطبعه يبحث دوماً عن خفايا الأشياء المقدسة، إننا ضعفاء أمام المعرفة، والتوق لمعرفة خفايا الزمن، صدقني لا يمكن إنكار تلميحات الزمن لنا، فرجفة من شيئ غير متوقع تأسر انتباهي، ودائماً أرى أن بين يدي خيطاً يؤدي بي إلى ماوراء التفكير أو الشعور أو الفعل.

حين أنهى جملته الأخيرة شعرت ببعض الخوف من حالته النفسية، إذ بدا لي أن "سـيمان الإيراني" يغوص في كل يوم بأعماق فكره باحثاً عن حقيقة وهمية حول الزمن، ويتخيل أنه يعرف مالا نعرفه، ويؤمن بذلك..

جملته الأخيرة كانت كمؤشر واضح أن "سـيمان" يسير بفكره نحو الجنون.

نظرت إلى الساعة بيدي، كانت تشير إلى السابعة مساء وهو موعد العودة إلى الشقة الصغيرة، تنهدت قليلاً مبدياً رغبتي في المغادرة:

- والآن علي العودة صديقي، لكن قبل ذلك أريد منك ألا تبالغ في قهر مشاعرك لشيئ لا يستحق منك كل هذا الفيض من التفكير، فأنت لست عالم فيزياء، أو أحد الباحثين في مجال الزمن والوقت، الأمر لا يستحق صدقني، عشّ حياتك وفق ما هي عليه.

حين نظرت إلى عينيه كانت الدموع تسيل على وجنتيه بشكل واضح، لقد كان يبكي بصدق وحرقة...

- سـيمان، أأنت تبكي؟؟؟

حرك رأسه بالموافقة، ثم أخذ ينحب كالأطفال وباتت الدموع تنهمر وهو يقول:

- سامحني يا صديقي، لكن ما أعرفه وما أقاسيه شيئ أكبر مني، فأنا حقيقة أتمنى وأرجو في كل يوم لو يرجع بي الزمن إلى الوراء، إلى المكان الذي أستطيع فيه إيقاف هذه الدائرة التي لا تتوقف، ولا مخرج منها.

وضعت يدي على كتفه وقلت له بلغة صارمة:

- "سيمان"، لماذا تفعل هذا بنفسك؟ أنت تعرف أن العودة إلى الوراء شيئ مستحيل، ومهما كان ما تتمنى تغييره مهماً وضرورياً لحياتك، إلا أن الأمر قد حدث وبات من الماضي، وعودتنا لتغيير الأمور مستحيلة، صدقني إن بقيت تتحدث عن مثل هذه الأمور ستصاب بالجنون.

استجمع بعضاً من قوته، وعاد إلى الخلف، ثم قال بصوت منخفض:

- لدي طلب منك، وأتمنى أن تساعدني فيه.

ابتسمت له موافقاً، مضيفاً بعض المرح والضحك على الحوار:

- طبعاً بكل سرور، أي مساعدة أنا قادر عليها سألبيها لك، لكن لا تقل لي سافر عبر الزمن.!

ضحك ضحكة عفوية ثم قال:

- أنا سأسافر غداً صباحاً إلى إيران، وأعتذر كوني لم أخبرك بذلك، وما أريده منك هو أن تقبل مني هدية بسيطة.

كان طلبه غريباً، فأومأت له بالموافقة ضاحكاً:

- ألف طلب مثل هذا الطلب، ولكن لماذا قررت السفر فجأة؟
- في الحقيقة أنا أسافر مثل هذه الأيام من كل عام إلى بلدتي الصغيرة كإجازة سنوية، وسيحل مكاني هنا شريكي في العمل.

ثم اتجه إلى صندوق معدني صغير موضوع بجانب الثلاجة في زاوية محله، فتحه وأخرج منه كيساً قماشياً وقدمه لي.

- أرجو منك أن تقبل مني هذه الهدية، وأن تحافظ عليها بكل قوتك، فهي لك.

نظرت إلى ما في يده وقلت بتعجب:

- ما هذا؟

- إنها نسخة ورقية لكتاب مهم للغاية، وبإمكانك القول إنها النسخة الوحيدة المتبقية في هذا العالم.

فتحت الكيس القماشي فتبين أنه كتاب قديم أوراقه كرتونية صفراء قديمة، ويبدو أنه أشبه بكتاب تاريخي أو مخطوطة قديمة، وبين كل ورقة من أوراقه السميكة تم وضع أوراق بيضاء عليها كتابات بخط اليد.

- ما هذا الكتاب؟

تنهد قليلاً وأضاف ابتسامة على وجهه:

- في الحقيقة لا أعرف، إنه كتاب قديم للغاية، ومن خلال بعض فهمي لمفرداته أتوقع أنه نسخة نادرة من علوم الديانة الزرادشتية، خذها هي لك.

نظرت بتعجب إلى سـيمان، وبدا لي حقيقةً أنه لا يتصرف بوعي أو إدراك كامل.

- سـيمان، هل أنت بكامل وعيك؟! إن كانت بالفعل نسخة ورقية نادرة للديانة الزرادشتية، وقديمة كل هذا القدم، بإمكانك بيعها، أو وضعها في أحد المتاحف، لا أن تهديها لي.

تنهد بعمق، ونظر إلي بتأمل ثم قال:

- إنها نسخة ورقية لا تتحدث عن الديانة الزرادشتية، بل عن علوم الزرادشتية، وما يتحدث به هذا الكتاب رغم إدراكي البسيط لماهيته

إلا أن العلم اليوم لا يصدقه، هذا من جانب، أما لماذا أهديها إليك أنت بالتحديد؛ فاعذرني عن عدم الإجابة.

كانت كلمات سـيمان غريبة وعفوية، وأشبه بمسرحية تراجيدية، تملكني الخوف للحظة، فوضعت المخطوطة على الطاولة بكل هدوء وقلت له:

- أعتذر، لن أقبل هذه الهدية.

نظر إلي نظرات حادة وقال:

- أرجوك خذها، علينا المغادرة، ولا أريد أن يراها أو يعرف عنها أي شخص.

عدت ونظرت إلى عينيه بجدية:

- أخبرني لماذا أنا، ولماذا كل هذه التراجيديا والحزن في كلامك؟.

طأطأ رأسه، ثم حمل المخطوطة، ووضعها بين يدي وقال:

- هي لك، أنت من طلب مني أن أحضرها لك، فأرجوك خذها لأنها ملكك.

شعرت هنا أن سـيمان دخل دوامة من الجنون، أو أنه سيخبرني أنه سافر عبر الزمن، وعاد ليقول لي أشياء أنا قلتها له في المستقبل، فابتسمت بهدوء وقلت له:

- حسناً سآخذها، ولكن لا تقل لي إنها ملكي، وأنك عبرت الزمن وأحضرتها لي من المستقبل أو الماضي، أو خلاف ذلك..

ضحك سـيمان ضحكة غريبة فيها شيئ من التهديد، وضع يده على كتفي وقال بكل جدية:

- سيأتي يوم وتعرف الحقيقة.

حملت الكتاب بكل قدسية وهدوء، وشكرته على هديته الثمينة هذه، حاولت تصفح أوراقه السميكة، لكنها كانت مهترئة بشكل واضح، فتحت الورقة الأولى التي ترجمها "سـيمان" بخط يده، وجدت عنواناً كبيراً بخطه غير الواضح، كان مكتوباً عليها عبارة "هنا حين تسقط" عبارة أشبه بالعنوان، مكتوبة بخط رديء.

في الحقيقة شعرت ببعض الارتياح لاقتنائي مثل هذه المخطوطة، فرسومات دائرية غريبة كانت مرسومة على أول صفحة منها مع نجم أزرق غريب في المنتصف، لكن سؤالاً واحداً كان يجعل تفكيري مضطرباً، هل "سـيمان" صادق بكلامه هذا أم أنه مجنون؟

* * * * *

* * * * *

"ديجافو، كلمة فرنسية تعني (شُوهِد من قبل) ويسميها بعض العلماء بـ(وهم سبق الرؤية)، أطلق هذا المصطلح العالم (إميل بويرك) في كتابه مستقبل علم النفس، ويقسمها علماء النفس إلى ثلاثة أنواع:

(ما تم رؤيته سابقاً – ما تم الشعور به سابقاً – ما تم زيارته سابقاً)

(ديجافو) شعور يشعر به الفرد بأنه رأى أو عاش الموقف الحاضر من قبل، ويلازم هذه الظاهرة شعور بالمعرفة المسبقة وشعور بالرهبة والغرابة، أو ما سماه عالم النفس (فرويد) بالأمر الخارق للطبيعة، ففي بعض الحالات وأثناء حالة (وهم سبق الرؤية) يشعر الشخص بأنه بدأ يتنبأ بما سيحدث أمامه في الدقائق القليلة القادمة، وتتحقق نبوءته، وهو الأمر الذي إلى الآن لم يجد العلماء له تفسيراً واضحاً.

*****

كـان ذلك هو اليوم الأخير الذي شاهد "برهـان" فيه "سـيمان الإيراني"، وكان اليـوم الأخير الذي تحدث فيه إليه أيضاً، ففي صبيحة اليـوم التالي، وبدون أي اتصال بين الاثنين سافر "سـيمان الإيـراني" إلى قريته الصغيرة على أطراف مدينة "جيلان" الحدودية.

بعد مرور عدة أيام على اللقاء الأخير بين الصديقين تم رفض أوراق قبول إقامة "برهـان" في الكويت، لأسباب سياسية تتعلق بعلاقات الدول العربية فيما بينها، فقد أعلنت وزارة شؤون العمال والعمل عن رفض أي إقامة جديدة لأي مواطن سوري، وباتت العلاقة بين البلدين شبه منقطعة..

فما كان أمام "برهـان" سبيلاً سوى أن يودع أصدقاءه وأقرباءه، ويعود إلى دمشق مجدداً، جاراً معه أذيال الخيبة حاملاً كتاب "سـيمان المقدس"، أو هكذا أسماه، رغم أنه لم يقرأه ولم يقرأ الترجمة ذات الخط السيئ التي خطها "سـيمان الإيراني" بيده على بعض الأوراق البيضاء مدعياً أنها ترجمة لبعض المفردات من الكتاب، داساً ترجمته المكتوبة على أوراق لامعة جديدة بين أوراق الكتاب السميكة الصفراء القديمة.

*****

بعد وصوله إلى دمشق راح "برهـان" يركض بين المنزل والجامعة وشعبة التجنيد الإلزامي، حاملاً أوراقه محاولاً تمديد تأجيله الدراسي كي لا يُساق إلى خدمة العسكرية.

ليحصل على تأجيل نظامي كان لا بد له من أن يُسجل نفسه بين طلاب الدراسات العليا في جامعته قسم الآداب.

هو لا ينوي إكمال تعليمه العالي، لكنه يحتاج للمزيد من الوقت في حياته المدنية لعله يحصل على فرصة عمل خارج البلاد، فيُعيد من خلال سفره ترتيب حياته، وتثبيت خطوبته من حبيبته "صوفيا" خاصة أن عودته بأذيال الخيبة من "الكويت" قد وضعت علاقته العاطفية في زاوية قاسية خطرة، وما كان يحتاجه هو بعض الوقت فقط.

* * * * *

**التاريخ: ٠٣ - يوليو/ تموز**
**الزمن: ٠٩:٣٥**

صوت رنين جوالي كان عبارة عن أغنية رومانسية اخترتها أنا و"صوفيا"، ووضعها كل واحد منا كنغمة تنبيه لجوالاتنا حين نتصل ببعضنا البعض فقط، لكن هذه المرة شعرت أن الأغنية غريبة وهي تصدح من جوالي، رغم أنني أسمعها في اليوم عدة مرات مع كل اتصال يردني منها، إلا أن نغمة رنين اتصالها هذه المرة أشعرني ببعض الغرابة، أو هكذا ظننت.

فتحت الهاتف، على الفور جاء صوتها الحاد من بعيد:

- صباح الخير.. كيفك؟
- أهلاً حبيبتي..
- مازلتَ نائماً؟؟!!
- لا استيقظت باكراً اليوم، كنت أنوي الذهاب إلى الجامعة لمقابلة بعض الأصدقاء، لكنني أجلت الموضوع.
- لا.. إذا كان بإمكانك القدوم إلى الجامعة تعال، هناك أمر مهم أريد أن نتحدث به.

شعرت وعرفت على الفور أنها ستقابلني اليوم لتضعني تحت الأمر الواقع من منطق الفتاة التي تقع بين نارين، حبها من جهة، وقطار العنوسة ومجتمعها من جهة ثانية، وأنا أعرف "صوفيا" جيداً رغم حبي لها وتعلقي بها، إلا أنها تَزِن الأمور بمقياس المنطق والعقل بشكل كبير بعيداً عن

العاطفة، ومن طريقة كلامها هذه المرة عرفت أنها تُريد إنهاء العلاقة بشكل كلي، وبصورة تحفظ بها ماء وجهها.

لم يخب ظني أبداً بما توقعته من هذه الفتاة، فبعد وصولي إلى حديقة الجامعة حيث نلتقي على الدوام قبل دخولنا إلى المقهى، بدأتْ بإدارة الحوار فلسفياً متمنطقة بعبارات خذلاني لها، بكت وشهقت بما فيه الكفاية لتوصلني إلى تبرير واضح بضرورة إنهاء العلاقة وبشكل كلي بيننا، فهذا من مصلحة الطرفين حسب قولها.

رغم معرفتي أن الأمر سيكون قاسياً عليّ في الأيام القادمة إلا أنني قررت مواجهته، خاصة حين عرفت لاحقاً وبطريق الصدفة، أنها استقبلت عائلة خاطبٍ في منزلهم تقدم لها للزواج، كان ذلك قبل أن تفاتحني بموضوع إنهاء العلاقة العاطفية فيما بيننا، وأنها وأهلها قد طلبوا من عائلة الشاب فرصة قصيرة للتفكير.

جميعهم ضمناً كانوا موافقين على الشاب الجديد القادم، خاصة أن أمها التي تعرف بعلاقتنا، دعمتها بشكل كبير لتتزوجه، متبجحة أن المستقبل أمامي غير واضح.

معرفتي بهذا الأمر سهل بشكل كبير مهمة البدء بنسيانها، وجعلها ذكرى قاسية من الماضي الجميل، ماضي الدراسة والجامعة والحياة البسيطة والجميلة.

كل علاقات الحب مبنية على الذاكرة والذكريات، وما كنت بحاجته حقيقة هو محاولة إلغاء هذه الذكريات، لكن الأمر ليس بهذه السهولة خاصة أن علاقتنا وصلت إلى مرحلة متقدمة نوعاً ما، فكنت أحياناً أُقبّل

شفاهها بشغف، أشعر بنهديها المتحجرين يعانقان صدري حين أضمها بقوة، عدة ثوانٍ قليلة في الحديقة مساءً أو في أحد المصاعد أو ضمن مكان منزوٍ داخل شارع مظلم بداية إسدال ستار الليل، كلها كانت كافية لإمدادي بشعور جنسي جميل يلبي لي الكثير من توازن المشاعر مع حبيبتي إن صح التعبير.

قبل سفري إلى "الكويت" بيوم واحد التقيت بها، كان اللقاء دافئاً للغاية، تحدثنا كثيراً وتبادلنا عبارات الغزل بقوة، بكت بحرقة قوية لوداعي، أمسكتْ يدي وشدت عليها، أمالت رأسها على كتفي، قالت كلاماً كبيراً عن الحب والموت واللقاء والوفاء والصدق والثقة.

حينها ونحن نسير على رصيف شبه فارغ من المارة، وقفت قبالتي، نظرتْ إليّ وقالت بجرأة لم أسبقها من قبل؛ "قبلني الآن وبقوة"، كانت المرة الأولى التي تطلب ذلك بنفسها، شعرتُ حينها بألق غريب في مشاعري، فحين يبدأ الطلب من المرأة يكون الأمر أكثر إثارة وأكثر جمالاً، كان طلبها بقبلة مني بحد ذاته نشوة مستعرة تختلف عن محاولات الرجل الغبية للوصول إلى مبتغاه.

نظرتُ حولي وبلمح البصر قبلتها، عرفت أنها مستعرة بقوة، وبما أن موعد سفري بعد أقل من أربعٍ وعشرين ساعة، كان لدي فرصة ذهبية لوداعها الوداع الذي يليق بحبنا قبل السفر.

خلال اتصالين اثنين مع أصدقائي استطعتُ الحصول على شقة شبابية فارغة لبضع ساعات نلتقي فيها، ونتحدث بشكل حرّ، وهي المرة الأولى التي سأختلي بصوفيا لوحدنا.

اشترينا غداءنا من مطعم قريب واتجهنا إلى الشقة الصغيرة، بكل هدوء وبعد تناولنا للطعام تلامسنا بشكل حرّ ضمن كينونة جنسية غرائزية رائعة، كان اللقاء أشبه بتمازج الماء والنار معاً.

كانت المرة الأولى التي أراها عارية تماماً تتماوج بشغف على جسدي كسفينة وسط عاصفة بحرية عاتية، جسدها الأبيض الطري الغض الممشوق ذو التفاصيل والانحناءات الدقيقة كان أسيراً لناري المتقدة، والتي انتهت بهدوء جميل بعد موجة الإعصار تلك..

الآن وبعد كل هذا الدفق انتهت علاقتنا إلى غير رجعة، وما بقي بحوزتي هو ذاكرة وذكريات، وعليّ إلغاؤها إلى غير رجعة كذلك.

* * * * *

لعبة الجسد لعبة تُدخلنا إلى أبعاد الحياة الخفية، فنحن دوماً نُضلل حكمة جسدنا الفاني، ونتجاهل نموذج الحياة الروحية والمثالي بداخلنا، فهفواتنا تشير دائماً إلى نمط حياتنا المتغير، لهذا يحتاج كل واحد منا لأن يدرك أنه يعيش ضمن لعبة الخيارات، وهي نفس الخيارات لنا جميعاً في كل الأزمنة والأمكنة، فبقدر ما يبدو عالمنا المادي مُقنعاً إلا أن أحداً لم يستطع إثبات أنه حقيقي، أو أنه الحقيقة، وهذه نقطة ضعفنا.

**المؤلف**

* * * * *

**التاريخ: ٠٥- أغسطس / آب**
**الزمن: ١٠:١٨**

بعد عودة "برهـان" إلى دمشق، وتمكنه من تأجيل موعد سوقه إلى خدمة العلم، وفسخ خطوبته من حبيبته "صوفيا"، قرر إعادة ترتيب بعض حاجياته المتروكة في حقيبة جلدية صغيرة جاء بها من "الكويت"، فقد بدا له أن محاولة سفره مجدداً خارج البلد تحتاج لوقت ليس بالقصير، وقراره أن يعود للعمل بشكل حرّ في الكتابة والتدقيق مع بعض الجرائد والمجلات المحلية في مدينته قرار صائب، فهو بحاجة الكثير من المصاريف الشخصية في الوقت الحالي.

من بين الأشياء التي أخرجها من حقيبته تلك كان الكتاب الغريب الذي أهداه له "سـيمان الإيـراني"، حين رأى المخطوطة ابتسم ابتسامة عريضة واضحة، فقد تذكر صديقه "سـيمان" وأحاديثه الممتعة والرائعة، وتذكر غرابة اليوم الأخير قبل سفره إلى إيران وكيف كان مضطرباً ويتحدث عن الزمن والعودة والحياة بفلسفة لم تعجبه حينها.

علاقته بـ"سـيمان" كانت بالنسبة له أحد الأشياء المميزة والجميلة التي قابلها في دولة "الكويت".

حمل المخطوطة بكل هدوء واتجه إلى طاولته، وضعها برفق وقبل أن يفتحها، اتجه إلى خزانته الصغيرة، أخرج منها قفازاً مطاطياً أبيض أشبه بالقفازات التي يرتديها الأطباء قبل إجراء العمليات.

فتح المخطوطة وأخذ يقلب أوراقها الصفراء السميكة، ويتمايزها بدقة.

مخطوطات ورسومات قديمة، كلمات غير مفهومة، فلا هي بتلك الكلمات التي تشبه الأحرف الصينية أو الهندية، ولا بالأحرف القريبة إلى العربية أو الفارسية أو الكردية أو حتى الآرامية أو العبرية القديمة.

قلب الصفحات الصفراء السميكة، كانت عبارة عن مخطوطة غريبة الرسومات وغريبة الكلمات وغريبة التوزع، وكلها مكتوبة ومرسومة بشكل دائري.

أمسك إحدى الأوراق البيضاء التي أضافها "سـيمان" لاحقاً إلى المخطوطة، وقرأ ما كتبه على إحداها بخطه العربي غير الواضح، لكنه استطاع فهم جملة واحدة، تأملها وسأل نفسه:

"هل بالفعل نجح سـيمان من ترجمة بعض هذه المترادفات؟، ولكن، ما هي اللغة التي ترجم منها؟، إنها ليست لغة معروفة ولا لغة قديمة، إنها أشبه برسومات وشيفرات ورموز غريبة تشكل جملاً معينة".

أعاد النظر إلى ما كتبه سـيمان مجدداً وقرأ ذلك بصوت مسموع:

(حضورك الغامض القابع في كل جزء من الوقت، يغمر حياتك، إنك كتاب السرّ الذي ينتظر من يفتحه، وحين تفتحه ستعيش صدق مبدأ الحقيقة الواحدة، فالزمن سيكشف لك نفسه وسره دون عناء أو كفاح).

عاد "برهـان" وكرر ما كُتب عدة مرات لعله يفهم شيئاً من هذه العبارة، لكنه لم يفهم المغزى الحقيقي منها.

قلب الصفحة التالية، كانت عبارة عن رسمة لزهرة أو ما يشبه الزهرة العريضة الغريبة المرسومة على كامل الصفحة الصفراء القديمة، أما المسافة الفارغة المتروكة تحت الزهرة وما حولها فقد كُتبت طلاسم ورموز وكلمات غريبة.

بعض الرموز باتت غير واضحة بسبب مرور مئات وربما آلاف السنين عليها.

لكن بدا له أن الحبر الذي استُخدم في الكتابة كأنه دم حيوان ممزوج مع مادة غريبة، فخلال دراسته الجامعية تعرف على الطرق العجيبة التي استخدمها القدماء في كتابة مخطوطات ورقية تعيش لآلاف السنين من خلال مزج دماء بعض الحيوانات المفترسة مع مواد صمغية لأنواع محددة من الأشجار، حيث تُصنع يدوياً للحصول على حبر مميز.

وقف من مكانه واتجه إلى خزانته الصغيرة، أخرج "مكبرة يدوية"، وأخذ يقربها متأملاً المخطوطة، لكنه لم يفهم منها شيئاً، عاد وقلب الصفحات فوجد صفحة بيضاء جديدة كتبها "سيمان" بخط يده غير الواضح أيضاً، حاول أن يقرأ ما كُتب فيها مردداً الكلمات بصوت مسموع:

(خيار الزمن الوحيد هو نقطة بين النور والظلام، فإذا آمنت به ستعرف أن الوقت في أبعاد خفية بين حياتنا، وحياتك تستحق البحث، افتحه ساعة سيمر دهر، افتحه دهراً سيمر قرن افتحه قرناً ستمر ساعة).

ما إن أنهى "برهـان" عبارته الأخيرة حتى انفجر في الضحك، شعر وكأنه يقرأ إحدى حكايا ألف ليلة وليلة، أغلق المخطوطة بهدوء، ثم أعادها إلى كيسها القماشي، ووضعها فوق الخزانة الخشبية في غرفته بين الأشياء التي يقف الزمن عندها، فلا هي ضرورية ومهمة ليتم استخدامها وترقيتها إلى داخل الخزانة، ولا هي تافهة وغير مهمة حتى يتم إتلافها.

* * * * *

نحن نعيش في عالم محكومين فيه بدقات الساعة، محكومين فيه بسجن الوقت من أصغر الخلايا إلى أكبر المجرات والكواكب، كل هذا يخضع لإيقاع الزمن الثابت والدائم، فنحن كالعبيد بين الوقت، والوقت في كل مكان حولنا، منتظم ويجري في اتجاه واحد.

**إسحاق نيوتن**
**عالم فيزياء ورياضيات،**
**صاغ قانون الجذب وقانون**
**الحركة والزمن.**

*****

**التاريخ: ٠٧ - سبتمبر / أيلول**
**الزمن: ٠٥:٠٠**

سرتُ حافي القدمين على أرض حجرية صلبة مرصوفة بشكل فني متقن، كنت أشعر ببرودة الحجر الذي يلامس قدميّ، كان الظلام دامساً إلا من ضوء أمامي، وقفت وتأملت الضوء الثابت، كان صادراً من شعلة نارية بيد شخص يقف على سور حجري ضخم وعالٍ، كان الشخص يبدو وكأنه ينظر باتجاهي ويحرك الشعلة التي بيده يميناً ويساراً، كأنه يطلب مني الإسراع باتجاهه، وهذا ما فعلته بالضبط، أخذت أركض مهرولاً نحوه، كنت كلما اقتربت أكثر من الجدار الحجري ظهر لي كم هو مرتفع.

وصلت إلى الجدار، نظرت يميناً ويساراً، كان سوراً عالياً لا بداية له أو نهاية وكأنه يقسم الأرض إلى مكانين، نظرت إلى حامل الشعلة، عرفته على الفور، إنه "سيمان الإيراني"، ولكن لماذا يقف على جدار حجري بهذا الارتفاع، ارتفاع يتجاوز الخمسة عشر متراً، نظرت جيداً باتجاهه، فشاهدتُ أحد أخوالي يجلس بجانبه مطأطئاً رأسه إلى أسفل.

نظرت إلى سيمان وخالي الذي يبدو عليه الحزن، فقلت صارخاً:

- ماذا تفعلان هنا؟؟

ضحك "سيمان" وقد وضع شعلة النار من يده وقال:

- اصعد إلى هنا كي لا تسقط.

ضحكت على جوابه المستفز الغريب، فقلت لهما:

- انزلا حالاً، انزلا كي لا تسقطا.

لم يتكلم خالي بأي كلمة، بل نظر إلى عيون سـيمان، وكأنه يطلب منه الرحمة، ثم نظر سـيمان باتجاهي وقال لي بنبرة جدية حادة:

- اصعد إلى هنا كي لا تسقط.

شعرت أن خطباً ما بينهما، لم أجبه إلى طلبه؛ بل بقيت انظر إلى خالي وحزنه ونظرات الاسترحام التي ينظر بها باتجاه سـيمان، ثم نظر سـيمان إلى خالي نظرة حادة، وقال له بصوت خافت لكنني سمعته بوضوح:

- حين تسقط ستنظر للأعلى.

وما إن أكمل جملته هذه حتى بالفعل سقط خالي من على السور الحجري العالي إلى الطرف الآخر من السور مُحدثاً صدمة قوية، صدمة من شدتها نهضت فزعاً من فراشي وكأن ماساً كهربائياً أصابني.

نظرت إلى ساعة الجوال بجانبي، كانت تشير إلى الخامسة فجراً، جلست مُتكئاً على السرير أفكر بتفاصيل هذا الكابوس المزعج، إنها المرة الأولى التي أحلم فيها بصديقي سـيمان الإيراني، كان حلماً مزعجاً للغاية.

فكرت للحظة ما الرابط بين "سـيمان" وخالي، وما تفسير دلالة الجدار في الحلم، والسقوط من أعلى الجدار الحجري، وشعلة النار، ودلالة سيري حافي القدمين، وجملة سـيمان الغريبة "اصعد كي لا تسقط"، ثم جملته التالية لخالي "حين تسقط ستنظر للأعلى".

نهضت من الفراش ووقفت عند النافذة، كان ضوء الفجر يشق طريقه باتجاه الأفق الأزرق معلناً ولادة يوم جديد، حدثت نفسي بضرورة الاتصال

بخالي هذا اليوم والإطمئنان عن صحته، فقد مضت مدة دون أن أتصل به أو أطمئن عنه.

اتجهت إلى المطبخ لإعداد القهوة، فالنوم بعد هذا الكابوس يبدو مستحيلاً.

وضعت الماء على النار ووقفت منتظراً أن يغلي، كانت دلالات الحلم غريبة لم أفهم معناها، لكنها بالتأكيد تُصنف ضمن الكوابيس المزعجة.

لكن ما لفت انتباهي حقيقة هو الجملة التي نطق بها "سـيمان": (حين تسقط ستنظر للأعلى)، والجملة التي كُتبت على تلك المخطوطة (هنا حين تسقط)، وتسائلت في أعماقي هل هي محض صدفة؟، أم أن هناك رابط ما بين الحلم والجملة المكتوبة داخل عقلي الباطن.

بعد مرور أقل من ساعتين، حدث ما لم أكن أتوقع حدوثه، والذي لم أُحدث به نفسي حتى، رغم أنني شعرت به يحرقني في أعماقي.

رن هاتف المنزل ليصلنا خبر وفاة خالي "حسين" بسكتة قلبية فجائية فجر هذا اليوم، وبالتحديد تمت الوفاة تمام الساعة الخامسة فجراً.

اجتاحتني حالة من الاضطراب والحزن والخوف والبكاء معاً، هرعت أنا وأختي "سمر" و"بلال" مع أمي الحزينة الباكية لنودعه الوداع الأخير، ولنشارك بإعداد الجنازة حسب التقاليد والأعراف الدينية.

حملنا الجثمان خارج البيت مع عويل النساء المختلط بصوت قراءة القرآن، واتجهنا إلى المكان الذي يتوقف فيه الزمن، إلى مكان يبدو كرحم الأرض، يستقبل أجسادنا الصامتة استعداداً لولادة جديدة تليق بأرواحنا.

بعد عودتنا من المقبرة لم أستطع الهروب من شعور أنه قد اختفى تماماً وبكل معنى الكلمة، وما كان يخيفني بشكل أكبر هو دلالة الحلم التي تحققت على أرض واقعنا بنفس الوقت الذي شاهدت فيه هذا الكابوس.

لكن وبعد عدة أيام شعرت أن الأمر لم يكن سوى مصادفة غريبة، فالأحلام لها رابط بين الواقع والخيال، ولربما لها درجة من درجات الطاقة، وكثرٌ هم من يحلمون بأشياء تتحقق معهم وضح النهار، كما أنني لم أشأْ منح هذا الحلم أهمية أكبر من حجمه.

* * * * *

"بعض الأحلام تأتينا بشكل جديد، فنشعر بالخوف أو أننا بخطر، كما ونشعر أن هذه الأحلام لها هدف معين، ورغم أننا قد لا نعرف ماهية هذا الهدف، إلا أن حياتنا في العالم الواقعي قد تتغير، وخوفنا من أن تتحقق هذه الأحلام تزيد من خوفنا، فإذا ما تحققت سنشعر أننا بمثابة هدف لأحد ما، أو أن هناك كائنات خارجية تراقبنا".

**آلان هوبسون**
**طبيب نفسي في كلية الطب**
**بجامعة هارفارد**

* * * * *

لم يشعر "برهـان" أن حلمه الذي تحققت دلالاته شيئ غريب، أو خارجَ حدود المنطق البشري، بل هو أمر عادي، خاصة أنه سمع الكثير من قصص الآخرين عن أحلامهم التي تتحقق كفلق الصبح، حسب قولهم، لكن بالنسبة له كانت هذه المرة الأولى في حياته التي يشاهد فيها حُلماً بهذا الصفاء والنقاء والوضوح، وبهذه التراتبية التفصيلية، كما وشاهد صديقه "سـيمان الإيراني" والذي لم يتواصل معه منذ عدة أشهر.

بعد انتهاء فترة العزاء والتي تمتد لثلاثة أيام بلياليها، شعر أنه بحاجة للتحدث مع "سـيمان" وكان فيما سبق قد اتصل به عدة مرات، وأرسل له عدة رسائل على جواله الذي يحمل الرقم الكويتي لكن لم يصله أي ردّ.

قرر اليوم أن يحصل على رقم شريكه في محل بيع قطع التبديل ضمن المنطقة الصناعية في "حولي" ويستفسر عن حالته.

اتصل بقريبه الذي يعمل بالمحل الصناعي الملاصق لمحل "سـيمان"، سلم عليه بحفاوة، ثم سأله عن "سـيمان" فأجابه قريبه بصوته البعيد المشوش:

- سـيمان لم يعد من سفرته الأخيرة، ربما سيتأخر!!.
- لماذا؟ ما السبب.
- في الحقيقة لا أعرف، سألت شريكه فقال لي إن أخباره مقطوعة منذ وصوله إلى قريته، ولكن لماذا تسأل؟؟

ازدادت حيرة "برهـان" وشعر بشعور سلبي، فحدّث نفسه للحظة هل يعقل أن سـيمان تعرض هو الآخر لحادث ما أودى بحياته؟، خاصة أن خاله توفي، وكانا مع بعضهما البعض في حلمه فوق السور الحجري.

عاد صوت قريبه من سماعة الهاتف بعد شروده:

- برهـان.. برهـان!.. هل مازلت معي على الخط؟..
- نعم معك.. لكنني أحتاج منك أمراً بسيطاً!؟
- تفضل.
- أريد التحدث مع شريكه في المحل، من المؤكد أن لديه رقماً لعائلة "سـيمان" في إيران أو عنوانه أو ما شابه ذلك.
- لا بأس؛ سأرسل لك الرقم كرسالة على جوالك، وأنت تحدث معه.

انهى "برهـان" محادثته وقد ظهرت أمارات الحيرة واضحة على وجهه، يبدو أن سبباً كبيراً منع "سـيمان" من العودة للعمل في "الكويت".

بعد مرور القليل من الوقت قرر الاتصال بشريكه وأخذ بعض التفاصيل عن "سـيمان" والتي قد تساعده في التواصل معه، لكن المفاجأة اجتاحته حين عرف أن "سـيمان" غادر قريته في "إيران" منذ عدة أسابيع واتجه هو وعائلته الصغيرة للعيش في "الهند" بشكل غامض وغريب، وأنه لا ينوي العودة إلى "الكويت" نهائياً، ولا توجد أي طريقة للوصول أو التواصل معه، فعنوانه الجديد في الهند غير معروف.

بعد أن سمع "برهـان" هذا الكلام دخل في دوامة تفكير غريبة، بدأت ذكرياته القريبة مع "سـيمان" تعود إلى ذاكرته، أحاديثه، حزنه الشديد على شيئ يتمنى لو يعود به الزمن ليغيره، المخطوطة السرية أو المقدسة التي أهداها له، الترجمة التي استطاع "سـيمان" ترجمتها من المخطوطة رغم غرابة الأحرف التي لا تعود إلى أي لغة عالمية معروفة، وأخيراً الحلم الذي راوده قبل عدة أيام.

لكن السؤال الأكثر غرابة هو "لماذا الهند؟ وما علاقة "سـيمان" بالهند؟.

*****

مثل أي شاب آخر كنت أحاول التوفيق بين عملي الجديد ككاتب ومدقق صحفي في المجلات والجرائد المحلية، وبين حياتي العاطفية الفارغة، فعملي آني وغير ثابت، وكل يوم أُعيد حساب الأيام المتبقية لي قبل أن يتم سوقي إلى العسكرية.

في كل يوم تقريباً وبعد خروجي من مقر العمل أتجه إلى شركات الطيران والشركات السياحية التي تسعى لتجد لي فرصة عمل خارج البلد، مقابل مبلغ مالي كبير يأخذونه مني في حال حصلتُ على الفيزة والعمل.

بعد انتهاء علاقتي العاطفية بصوفيا، فكرت وبشكل جديّ أن أرتبط مع فتاة أخرى، لكن ليس للزواج، فقرار الزواج بعيد كل البعد عن تفكيري في الوقت الحالي، لكنني بحاجة لملئ الفراغ العاطفي الذي تركته "صوفيا" بعد مغادرتها.

عرفت خلال حياتي الجامعية الكثير من الفتيات، وذاكرة جوالي مليئة بأرقامهن، لكن ورغم صدى الفراغ بداخلي إلا أنني في كل مرة أقرر فيها أن أتصل بإحداهن، كنت أتراجع عن ذلك، ولم أعرف السبب الحقيقي وراء تبدلاتي النفسية هذه.

يوماً بعد يوم كنت أفكر في موعد مع السفر أو موعد غرامي قادم، يوماً بعد يوم أُسرع في خطواتي، وتتسارع مشاعري في زحمة المرور والطرقات

الضيقة، لحظة أكون فيها سعيداً، خاصة حينما أرى اسمي ظاهراً على مقال كتبته في جريدة أو مجلة بعد طباعتها، وتارة أشعر أني متوعك لأنني أعيش حياة الانتظار، أو لأنني مشوش الذهن، فما بين التشويش والوثوق، وما بين الثبات والتشتت، كانت أيامي تسير في الزمن إلى الأمام دون أن تتوقف.

أيام أشبه بمحتويات حقيبة عقلية أحملها وأسير فيها ضمن الشوارع التي تتغير وتتبدل كل يوم.

*****

**التاريخ: ٠٨ - أكتوبر / تشرين الأول**
**الزمن: ٠٥:٠٠**

مجدداً...

سرتُ حافي القدمين على أرض حجرية صلبة مرصوفة بشكل فني متقن، شعرت ببرودة الحجر الأملس الذي يلامس قدميّ، كان الظلام دامساً إلا من ضوء أمامي، وقفت وتأملت الضوء الثابت، إنها شعلة من النار بيد شخص يقف على سور حجري ضخم وعالٍ، لقد مررت من هنا سابقاً، وعرفت من يقف على السور الحجري.

كان "سـيمان" ينظر باتجاهي ويحرك الشعلة يميناً ويساراً ويطلب مني الإسراع باتجاهه، وهذا ما فعلته بالضبط، أخذت أركض مهرولاً باتجاهه...

وصلت إلى الجدار، ولدي الكثير من الأسئلة كي اسأله إياها.

عند أسفل الجدار الذي يرتفع ما يقارب الخمسة عشر متراً، نظرت يميناً ويساراً، سور لا بداية له أو نهاية وكأنه يقسم الأرض إلى مكانين، نظرت إلى "سـيمان" مجدداً فكانت صاعقة جديدة، لقد شاهدتُ جدتي هذه المرة تجلس بجانبه مطأطئة رأسها إلى أسفل، عرفت أني نائم أحلم، شعور مزودج راودني بين حلم لا أستطيع الخروج منه، وبين حقيقة في حياتي قد يؤثر عليها هذا الحلم المخيف.

على الفور صرخت على سـيمان:

- "سـيمان" لماذا تفعل هذا؟؟؟

نظر إلى جدتي التي كانت تنظر إليه نظرات من الخوف والرحمة، ثم أعاد النظر إليّ وقال:

- أنا لا أفعل شيئاً، أنت ماذا تفعل في الأسفل، هيا يا "برهـان" أطعني هذه المرة واصعد إلى هنا كي لا تسقط.

كانت نفس العبارة التي تحدث فيها سابقاً، شعرت أن الأمر سينتهي بصورة سيئة، فنظرت إلى جدتي وقلتُ لها صارخاً:

- جدتي... انتبهي جيداً كي لا تسقطي.. انتبهي إليّ ولا تتحدثي معه.

لكنها على عكس ما قلتُ لها، أعادت النظر إلى عيون "سـيمان" الغريبة، كانت خائفة بالفعل، ثم نظر "سـيمان" إليها وهو يبتسم ابتسامة صفراء، ثم قال لها بصوتٍ خافت لكنني سمعته بوضوح وكأنه يتحدث أمامي مباشرة:

- حين تسقطين ستنظرين للأعلى.

وما إن أكمل جملته هذه حتى بالفعل سقطت جدتي من أعلى السور الحجري العالي إلى الطرف الآخر من السور مُحدثة صدمة قوية، صدمة من شدتها نهضت فزعاً من فراشي وكأن ماساً كهربائياً أصابني للمرة الثانية.

*****

ما بين الحقيقة والواقع دخل "برهـان" متاهة من الألم الفكري الغريب، متاهة حملته على التساؤل بريبة، ما الذي يحدث معه بالضبط؟

لماذا تكرر الحلم الغريب خلال ثلاثين يوماً فقط، وهل جدته الآن في خطر، هل ماتت هي الأخرى؟.

قبل عدة أيام رآها، كان حزنها مؤلماً على موت ابنها "حسين"، ضمت صورته إلى صدرها، وبكت بحرقة...

كانت تُقبلها وتبكي، بل وتُقبل كل أشيائه وتبكي، تنظر إلى أطفاله وتقول لهم بانهيار، "مات أبوكم.. مات أبوكم" وكأنها لا تريد أن تصدق أن ابنها مات.

نهض من فراشه وسط ذهول وخوف، ترنح باتجاه النافذة فتحها ونظر خارجها، كان الشفق الأزرق لانبلاج الفجر يعلن ولادة يوم جديد، عاد فوراً إلى السرير أمسك جواله نظر إلى الساعة كانت تشير إلى الخامسة ودقيقة واحدة بالضبط.

لبس ثيابه دون أن يغسل وجهه، وخرج راكضاً في شوارع مدينته كالتائه الذي يبحث عن شيئ لا يعرفه.

لكي يصل إلى بيت جدته عليه أن يصعد سيارة تقله خارج المدينة، فالمنطقة التي تسكن فيها جدته تبعد ما يقارب الساعة والنصف عن مدينته، ركض بأقصى سرعة ملتفتاً بين الفينة والأخرى خلفه علّه يجد سيارة أجرة يصعدها، إلا أن الوقت لايزال باكراً، وقف قليلاً ثم اتجه راكضاً إلى الطريق العام الذي يبعد عنه عشرات الأمتار، فهناك سيجد سيارة أجرة بالتأكيد.

شعر أنه يركض داخل الحلم، وأن "سـيمان" قد يخرج له من بين الأزقة، كان الحلم بتفاصيله يرافق ذاكرته بصورة صافية وكأنه حقيقة.

وصل إلى الشارع العام لاهثاً، تنفس بعمق ثم تمالك نفسه قليلاً، وفكر في ذاته، إن كانت جدتي قد توفيت بالفعل فأنا أمام أحجية لا أعرف كيف

أخرج منها، وإن كانت على قيد الحياة فالأمر لا يعدو حالة نفسية مُرهقة وآنية.

وصلتْ إلى جانبه سيارة أجرة صفراء، على الفور أشار لها بالتوقف، وبينما هو يصعد السيارة، رن جواله، كان رقم المتصل هو رقم منزلهم الذي غادره للتو، فتح الجوال وضعه على أذنه وقبل أن يتكلم، سمع صراخ أمه وبكاءها يصدح من سماعة الهاتف وهي تخبره أن يعود إلى المنزل في الحال، فجدته قد توفيت.

*****

"كل حلم له صلة دائمة بأحداث خارج الزمن، قد تشير إلى اليوم السابق، أو إلى أحداث موغلة في القدم، وقعت في فترة الطفولة الأولى، بحيث يخيل للإنسان أن ذاكرته قد أتت عليها، ولم يعد في المستطاع استعادتها".

**سيغموند فرويد**
**طبيب نمساوي- اختص بدراسة الطب العصبي، ويعتبر مؤسس علم التحليل النفسي**

*****

أحجية لا أعرف كيف أخرج منها، أحجية بدأتُ أدرك فيها أن تحولاً غريباً يحدث في نفسي، وهذا التحول حقيقي وليس مجرد وهم أو حلم عادي.

كلما كنت أجلس مع نفسي وأستذكر الحلمين اللذين سقط فيهما خالي وجدتي من على ذلك الجدار الحجري، ثم ماتا في نفس يوم الحلم، بل وفي نفس التوقيت الزمني، أشعر أن هذا العالم الواسع بأسره مجرد حلم أيضاً.

فهذين الحلمين كانا عالماً من الأحداث الحية، تماماً مثل عالم اليقظة، لكنني عندما كنت أفتح عينيّ في الصباح أعرف أن تلك الأحداث الحية قد حصلت كلها داخل رأسي، وافترض أساساً أن تلك الأحلام ليست حقيقية، لكنها كانت تتطابق بدلالتها مع الواقع، من هنا بدأت أشعر أنني لست موجوداً داخل هذا العالم، بل إن العالم موجود بداخلي.

صرت أشعر أن كل هؤلاء الناس من حولي موجودون في أحلامي وأنا موجود في أحلامهم، إننا جميعاً عالقون في مزيج غريب من نسخة لأحداث وحياة الآخرين، وكأننا بقية بعضنا البعض.

صرت شبه متأكد أن "سيهان" كان يخفي عني أشياء لا أعرفها، وأن المواضيع التي كنا نتحدث بها لم تكن للتسلية أو لتمضية الوقت.

تذكرتُ تأثره الشديد وبكاؤه ذاك اليوم، وكيف كان الحزن والخوف يسيطران على نظراته، كما وأصبحت شبه متأكد أن وجود المخطوطة في غرفتي، والتي طلب مني أن أحافظ عليها، لها تأثير مباشر على أحلامي تلك.

مضت عليّ ثلاثة أيام في دوامة تفكير لا تنتهي، تائه بين أن أُحرقَ المخطوطة أو أبقيها؟!!

كنت على الدوام أتساءل: هل المخطوطة هي وراء وفاة خالي وجدتي؟، أم أنها كانت أداة إرشاد لي على حدث سيقع في المستقبل القريب جداً؟

أم أن كل أفكاري هذه هي مجرد هراء، وأن المخطوطة لا علاقة لها بكل ما حصل؟.

فكرت كذلك في إعادة إخراجها من غلافها القماشي، ومحاولة البحث وفهم محتواها، خاصة أن "سيمان" ترجم بعضها، لكن حتى ترجمة سيمان غير معروفة، كتاباته عبارة عن لغة فلسفية غريبة، وأتذكر أن كل أحاديثه خاصة في الأيام الأخيرة قبل سفره كانت حول الزمن ومحاولات العلماء السفر عبر الزمن، أو السيطرة على الزمن حسب وصفه، وأتذكر أنه وصف هؤلاء العلماء باسم "المنقذين" وأنه قد التقى بعض من تجول عبر الزمن، لكن كيف لهذا أن يكون صحيحاً أو منطقياً أو واقعياً؟؟، كما أن الجملة المكتوبة على غلاف المخطوطة تتشابه مع الجملة التي يذكرها "سيمان" داخل أحلامي (هنا حين تسقط).!

بعد كثير من التفكير والتأمل، اتخذت قراراً حاسماً، وهو أن أطوي هذا الموضوع نهائياً من تفكيري، وسأعتبر أن كل ما حدث مجرد هراء، فحادثتا وفاة خالي وجدتي، قد وقعتا، والموت مقدر لنا وعلينا جميعاً، والحلمان اللذان رأيتهما ليسا سوى أضغاث أحلام، وكثير هم الأشخاص الذين يشاهدون أحلاماً أثناء نومهم تتحقق كفلق الصبح أثناء النهار.

شعرت برغبة عارمة في الخروج من المنزل، بل وخارج إطار التفكير الذي يسيطر عليّ، أمسكت جوالي وأخذت أقلّب بين ملف الأسماء بحثاً عن اسم صديقة أخرج معها إلى مقهى الجامعة لوحدنا، فلم أشأ التحدث

مع أي شاب من أصدقائي، خاصة أنهم جميعاً شاركوني في عزاء خالي وجدتي خلال الأيام الماضية.

ما كنت بحاجته حقيقة هو الشعور بوجود أنثى رقيقة بجانبي، أتحدث معها، خاصة وأن ذاكرة "صوفيا" بداخلي لم تُمحَ نهائياً، لقد شعرت أنني بحاجة المزيد من الوقت لتصبح في "خبر كان" من ذاكرتي.

*****

"سارة توفيق" فتاة تصغرني بعام واحد، تعرفت عليها مصادفة مع صديقاتها في حديقة كلية الآداب، وعرفت أنها تدرس قسم التاريخ، ثم أصبحتْ ضمن فريقنا "شلة الجامعة"، الفريق الذي يضم ستة شباب وثمانِ فتيات، وكلنا ندرس فروع كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأقسامها المختلفة "الصحافة، اللغة الإنكليزية، اللغة العربية، التاريخ، الجغرافيا، الفلسفة، والمكتبات".

كانت "سارة" تبادلني نظرات الإعجاب، ومستعدة لتبادلني علاقة عاطفية طلابية، إن صح التعبير، لكن حين عرفتْ أنني على علاقة بـ"صوفيا"، حاولت الابتعاد قدر الإمكان، فهي لا تريد أن تولد عداوة مع "صوفيا"، فكان لقائي بها محصوراً ضمن فريقنا الجامعي، وحقيقة ما كان يجذبني إليها بصورة كبيرة هو صوتها الجميل وكلماتها الدافئة، وثقافتها المُدهشة، أما شكلها فهو ليس بالجمال الذي تتمع به "صوفيا" ولكن بصورة ما تُعتبر "سارة" أكثر إثارة وجاذبية بشكل جسدها المتناسق والمتناسب مع ثقافتها وأحاديثها الممتعة، كما أنها أكثر تواضعاً ورقة وعفوية.

ضغطتُ على زر الاتصال، وانتظرتُ قليلاً حتى جاء صوتها الدافئ المنطلق:

- برهاااان الغالي.. أين أنت أيها الخائن، لماذا كل هذا الجفاء والقطيعة.

لم تترك لي مجالاً للشرح باندفاعها ونشاطها وحرية كلامها، كنت أعرف أنها ستختصر عليّ الكثير من التملق والتفلسف كي أدعوها لشرب فنجان من القهوة وإعادة ذكريات الجامعة.

وافقتْ على الفور، وأرادت أن يكون اللقاء خارج حرم الجامعة، في مقهى شبابي ضمن أحد الأحياء الراقية في المدينة.

نهضت على الفور، غيرت ثيابي، ووضعت بعض العطر من زجاجة ثمينة، وخرجت للموعد المذكور.

كلنا ندين بعواطفنا إلى الماضي على شكل مشاعر لم نسمح لأنفسنا بالتعبير عنها، غير أن الماضي لا ينقضي طالما أنه لم يتم سداد هذه الديون، والحقيقة أنه لا يتوجب علينا العودة إلى الأشخاص الذين خانوا حبنا أو ظلمونا، فالأمر بالنسبة لهم قد لا يمثل نفس الأثر بالنسبة لنا، فغرض التخلص من دَين المشاعر هو أن نجد مكاننا في الحاضر والمستقبل القادم بدون تلك الكمية من ديون المشاعر المرهقة.

حين التقينا وعلى غير العادة، اقتربت مني "سارة" أثناء مصافحتها بشكل مُلفت، وبادلتني القُبل، كانت المرة الأولى التي أصافحُ وجهها بالتقبيل، جلسنا في مكان هادئ منزوٍ، وبدأ حديثنا بشكل اعتيادي عن الصحة والعمل والسفر وآخر التطورات الشخصية.

عرفتُ أنها لم ترتبط بعد للزواج، وأنها تنوي متابعة دراستها العليا، فطموحها هو أن تحصل على الدكتوراه في "التاريخ الحديث".

بالمقابل عرفتْ كل أخباري العامة، فك ارتباطي بصوفيا، وفشل إقامتي في الكويت، وحوادث الوفاة التي تعرضت لها عائلتي خلال الشهرين الماضيين.

شعرتُ من خلال أحاديثها الدافئة أنها مستعدة لخوض غمار علاقة حب جديدة، لكنني كنت أخشى أن تطلب مني الزواج بشكل رسمي لاحقاً، خاصة بوجود حاجز خدمة العلم أمامي أو السفر، وهي ليست بالصغيرة عمراً، وقطار العنوسة يطاردها كذلك، كما أنني لا أفكر فيها كزوجة بتاتاً، بل كصديقة وحبيبة إن صح التعبير للحالتين.

حين حدثتني عن نيتها بمتابعة دراساتها العليا، انبثق أمام مخيلتي للحظة المخطوطة التاريخية التي أعطاني إياها "سيمان" وربطت ذلك على الفور بدراستها، فسألتها مقاطعاً:

- هل لي أن اسألك بعض الأسئلة الخاصة بتخصصك العلمي؟

نظرتْ إلى عيني نظرة المتأمل، إذ أنها كثيراً ما كانت معجبة بعيني الزرقاوين، وقالت بطريقة مرحة:

- وهل ترى أن الوقت ملائم لمثل هذه الأحاديث السخيفة، أم أنك تريد اختبار معلوماتي؟

ضحكت على عفويتها وبراءتها، ثم قلت لها:

- لا، في الحقيقة هناك أمر يشغل تفكيري منذ عدة أيام، وليس لدي المعلومات الكافية عنه.

- هات اسأل، تفضل يا عزيزي!

تنهدتُ بعمق، وقررت بذاتي أن لا أُحدثها عن المخطوطة التي لدي، بل أردت الحوار معها عن الأمور التي كان "سـيهان" يحدثني بها:

- ماذا تعرفين عن كينونة الزمن والمكان أو ما يسمى بالولوج والسفر عبر الزمن تاريخياً؟

فتحتْ عينيها على أشدهما، ثم انفجرت بالضحك، بدا لي أن سؤالي قد أفزعها وأضحكها معاً:

- برهـان، ما هذا السؤال الغريب؟؟ ظننت أنك ستسألني عن تاريخ الحضارات في الشرق، أو صراع الحضارات تاريخياً وأثره على صراع الحضارات الحديثة، ثم إن تخصصي بعيد كل البعد عن ما يسمى كينونة الزمن، أو السفر عبر الزمن، هذه الأمور لها علاقة بالفيزياء، والنظرية النسبية التي أوجدها "آينشتاين"، و"ستيفن هوكينغ".

ابتسمت قليلاً لجوابها المنطقي، وشعرت أني تسرعت بطرح مثل هذا السؤال في هذا الوقت، فلم يكن أمامي سوى الهروب بسؤال آخر لتقريب الصورة لها:

- أنا لا أقصد السفر عبر الزمن فيزيائياً ورياضياً، أقصد هل مررتِ على قصص تاريخية قديمة تتحدث عن أمور تتعلق بمحاولة الإنسان دراسة الزمن؟
- في الحقيقة لا أعرف مثل هذه الأمور، ولم أسمع بها من قبل، لكن ذُكِرَتْ مثل هذه الحوادث في الميثولوجيا التاريخية كأساطير ونصوص كانت مقدسة لدى بعض الشعوب المتدينة، كالإغريق واليونان

وكذلك وردت كقصصٍ في الديانة الإبراهيمية ضمن اليهودية والمسيحية والإسلام بقصة "أهل الكهف"، فبعد أن ناموا مدة ثلاثة قرون تقريباً استيقظوا على عالم جديد تغير فيه كل شيئ تماماً، كما أن التحليل التاريخي لنصوص الديانة الإسلامية في قصة معراج النبي إلى السماء، ومشاهدة الجحيم وأهلها يتعذبون في معية الشيطان، ومشاهدة الجنة وساكنيها وحياتهم الهانئة، يصنف ضمن أساطير السفر عبر الزمن، وقبلها قصة القديس "آردا فيراف" الذي اختير لرحلة إلى السماء بسبب استقامته وصلاحه، ليرى العالم الآخر أي ما بعد القيامة ويخبر المؤمنين عنه، وهذا يصنف ضمن أساطير السفر عبر الزمن كذلك، وفي التاريخ البابلي هناك أسطورة الملك "إيتانا البابلي" الذي ارتفع إلى السماء وشاهد المستقبل، وكذلك قصة "إيليا النبي" الذي ورد في مخطوطات التوراة العهد القديم، أو ما تسمى بقصة المعراج اليهودي.

تفاجئت مما أوردته "سارة" على مسمعي حول قصص السفر إلى السماء أو ما يُصنف بالسفر عبر الزمن ضمن الأساطير التاريخية، حيث استطاعوا مشاهدة المستقبل.

رشفتْ بعض القهوة وتابعت تقول:

- وأنا لا أرى أن مثل هذه الأمور تشير إلى شيئ مهم فبإمكاني السفر عبر الزمن متى شئت، وضحكت.

نظرت إليها بتعجب غريب وذهول، وأعدتُ ما قالته باستغراب:

- ماذا قلتِ، بإمكانك السفر عبر الزمن متى تشائين؟؟

ضحكتْ من الانطباع الغريب الذي ارتسم على وجهي، وأكملت تتحدث بسخرية:

- لا تفهم كلامي بشكل مغاير، أنا أقصد أن الإنسان خلال نومه يسافر عبر الزمن، ففي الأحلام نخترق حاجز الزمن التقليدي لنصبح أكثر حرية في تعاملنا مع الزمن والوقت، فنسافر داخل أدمغتنا بذكرياتنا القديمة ضمن عالم شبه طبيعي.

*****

خرجت "سارة" من المقهى هي و"برهـان"، بعد حديث دافئ دار بينهما لمدة تجاوزت الساعتين تقريباً، وقفا على الرصيف المقابل، سلمتْ عليه بيدها على أمل اللقاء القريب مجدداً، وغادرت تمشي ضمن الشارع المقابل الضيق باتجاه إحدى المكتبات..

أما هو فقد وقف يتأمل جسدها من الخلف وهي مبتعدة، كانت تقاسيم جسدها تعجبه إلى حد ما.

لكن ما أثار إعجابه الكبير بها هو ثقافتها وأحاديثها الجميلة والمرحة، إنها بالفعل تصلح لأن تكتب التاريخ بأسلوبها الجميل هذا، بل وأن تسرد قصص التاريخ بطريقتها، فالتاريخ أجمل حين تسرده "سارة".

عاد إلى غرفته في حالة من التداخل والتماوج المتناقض في مشاعره، فهو من جهة أولى سعيد جداً ويشعر بالراحة بعد لقائه الحميم مع "سارة"، ومن جهة ثانية شعر بالخوف والحزن من أحجية الحلمين الذين رآهما في منامه، واللذين لم يعرف تفسيراً لهما.

جلس على طاولته، أمسك بعدة أوراق وراح يكتب بعض الكلمات التي علقت بذهنه أثناء حديثه مع "سارة".

كتب كلمة "أهل الكهف"، ثم كتب "الأحلام" ثم كلمة "النوم" ثم كتب كلمة "الزمن"، ثم اسم "آينشتاين" و"ستيفن هوكينغ".

وضع القلم من يده وأخذ يتأمل ما كتبه، ثم وضع دائرة بالقلم الأحمر على كلمة "النوم" ثم دائرة على كلمة "الزمن" ووصل بينهما بخط واضح.

تأمل الورقة مجدداً، ثم قام وألصقها على الجدار المقابل لطاولته المكتبية الصغيرة، تراجع بكرسيه قليلاً وأسند ظهره إلى الخلف ناظراً إلى سقف الغرفة، ثم تنهد بعمق، استنشق كمية كبيرة من الهواء وزفرها وهو مغمض عينيه يفكر.

استمر بذلك لبعض الوقت ثم قام من مكانه واتجه نحو الحاسوب الموضوع على طاولة أخرى في زاوية الغرفة، جلس إلى الحاسوب بعد أن شغله، وبدأ يتصفح المواقع التي تحدثت عن نظريات "آينشتاين" ونظريات "هوكينغ" حول علوم الفيزياء الحديثة.

*****

يستطيع الإنسان التحكم بأحلامه وما يود رؤيته أثناء منامه، وما الذي سوف يفعله أيضاً، ولكن هذا الأمر يتطلب توافقاً كبيراً بين المخ والعقل الباطن الذي يعد مخزناً توجد بداخله جميع الأمور التي مرّ بها الإنسان طوال حياته.

**ديردري باريت**
**عالمة نفس أمريكية وأستاذة**
**بجامعة هارفارد، مؤلفة**
**كتاب "لجنة النوم".**

* * * * *

**التاريخ: ١٠- نوفمبر/ تشرين الثاني**
**الزمن: ٠٩:٠٠**

وهذا يوم آخر، يوم سيكون مخيفاً وربما أكثر رعباً مما أتخيله الآن، أوجاع تزاحمت في جسدي...

مازلت مستلقياً على سريري منذ الساعة الخامسة فجراً، مغمضاً عينيّ لا أريد النهوض، أبدو وكأنني أحلم أحلامَ يقضة، أبدو وكأنني أستلقي على حافة جبل سيهوي بي إلى قاع مظلم، قاع لن يؤلمني السقوط فيه.

ضجة كبيرة تشتعل في مشاعري الداخلية لتبدو كصور أعيدها مجدداً.

كانت الأشكال المعتادة من صور الحلم الثالث والذي التقيت فيه "سيمان" تمر ذهاباً وإياباً في ذاكرتي؛ نفس الحلم ونفس الأحداث ونفس الحوار، ولكن ببطل آخر يجلس من جديد على نفس السور الحجري المقيت.

صوت الحشرجة في أنفاسي يخنقني، أنازع الدموع التي تنهمر بقوة، لكن ما أشعر به من الحزن يجعلني هادئاً كهدوء الأموات.

بكاء حقيقي مكتوم، ولا جرأة لدي لفتح عينيّ على واقع سيكون مؤلماً من جديد.

كنت أشعر أن الدموع تسيل على خدي وتبلل الوسادة التي استلقى عليها رأسي كرأس مفصول عن جسده.

دموع باردة جافة، دموع كثيرة وكافية لتصبغ الوسادة ببقعة دائرية مبللة، كأن كوباً من الماء قد سُكِب عليها.

ما هذا الحلم الذي يتكرر مجدداً؟!! كابوس ملعون يطاردني من جديد.

حلم أسود يزورني ليسرق مني في كل مرة شخصاً مُقرباً إلى قلبي.

"آدم" صديق الطفولة، ورفيق الحي، "آدم" نحت في أعماقي مشاعر رائعة، كبرنا معاً، دخلنا المدرسة معاً، باب منزلنا يقابل باب منزله، كان مثل الأخ لنا، وكنا مثل الإخوة له، سهرنا، لعبنا، تشاجرنا، أكل من طعام أمي، وأكلت من طعام أمه.

لقد اشتقت لك يا صديقي، أيها الحاضر الغائب، وتباً لك يا "سيمان"، تباً لك ولأحلامك، من أين جئت ولماذا اخترتني؟ لماذا تعذبني بأحلامك الظالمة المظلمة هذه؟!..

جلس "آدم" على نفس الجدار ونفس المكان ونفس الحلم، لقد عادت نفس الصور ونفس المشاهد للمرة الثالثة.

"حين تسقط ستنظر للأعلى" قالها سيمان مخاطباً عيون "آدم" الحزينة الراجفة، يبدو أنه لا مفر من هذه الجملة، لقد سقط "آدم"..

نعم... لقد سقط صديقي، سقط خلف الجدار، صوت سقوطه أحدث ماساً كهربائياً في جسدي، لكني هذه المرة لم انتفض من مكاني، بل شعرت بأني جزء من هذا الحلم.

الدموع مازالت تنهمر من عيوني يا صديقي، هل أصابك مكروه يا "آدم"؟ أرجوك أخبرني، أرجوك سامحني، إنها لعنة، لعنة تحرقني..

هل تذكر؟.. هل تذكر يا "آدم" ذلك اليوم؟، قبل أن تعرف نتيجة تخرجك من كلية العلوم، جئت إليّ لتخبرني أنك حصلت على زيارة للسفر

وبدء العمل في "دبي"، فابن عمتك نجح في استصدار الفيزة لك، وستسافر تاركاً هذه البلد القاسية على شبابها.

فرحنا معاً، وسهرنا في بيتك نضحك سعداء لفرصتك الذهبية في السفر وتكوين حياة تليق بك وبهدوئك وبثقافتك وطيبة قلبك، حينها كنا نحن الشباب فرحين لفرصتك هذه، أما والدك فبدا الحزن عليه لسفرك، جلس يوصيك بتفاصيل صغيرة لا تخطرُ على بال أحد كي تكون حذراً في غربتك عنه..

كيف ستستقبل يا أبا آدم خبر وفاة آدم اليوم؟؟؟

هل ستبكي؟؟

هل ستدمع عيناك عليه كما دمعت وأنت تفارقه في المطار؟

هل تذكر يا "آدم" حين أوصيتني ألف مرة ومرة ونحن في طريقنا إلى المطار أن أبقى متواصلاً مع جامعتك لاستخراج أوراق تخرجك وتصديقها وإرسالها لك إلى الإمارات.

ما الذي حصل لك الآن يا ترى؟، لماذا جلستَ بجانب "سيمان" في حلمي؟، لماذا سقطت؟؟

هل سأسمع اليوم خبر وفاتك بالفعل كما حدث في دلالة حُلمَي خالي وجدتي؟؟

كيف يمكن أن يكون هذا؟

هل هذه الأمور موجودة في حياة الآخرين، أم فقط في حياتي أنا؟

هل أتنبأ بموتك؟ أم أنني السبب في موتك؟

هل أنا إنسان صالح ليحدث لي كل هذا؟..

أم أنني أشد سوءاً مما أظن حتى تُصيبني هذه اللعنة؟

تجبرني ذكرياتي المقدسة معك أن أبكيك، ويجبرني قلبي أن أحزن عليك، ويجبرني التفكير أن أتألم، وتجبرني أحاديثك الطاهرة أن أنزف.

إنك تجبرني على الموت والتحسر معاً.

"آدم" هل سقطت بالفعل؟ أم أنه مجرد كابوس أسود؟

"آدم"؛ صدقني لا أجرؤ على فتح عينيّ رغم أني أشعر بالضوء يتسرب إلى غرفتي، وأشعر ببرودة الدموع على خدي، لكنني خائف جداً، خائف أن افتح عيني فأسمع خبر وفاتك اليوم.

*****

لم يشأ أو لم يستطع "برهـان" فتح عينيه بعد حلمه الثالث، حين رأى صديقه العزيز "آدم" جالساً على ذلك الجدار الحجري بجانب "سـيمان" ثم سقط أسفل الجدار.

خاف كثيراً من هذا الحلم إذ أنه يتكرر معه للمرة الثالثة، وتحققت دلالته في المرة الأولى والثانية حين توفي خاله وجدته، وما يخشاه حقيقة أن يصله خبر وفاة صديق طفولته ورفيق حارته "آدم".

تجاوزت الساعة الجدارية التاسعة صباحاً، وهو مازال مغمضاً عينيه ودموعه تسيل تباعاً وبصمت على خديه مبللة وسادته.

قرعت أمه الباب بهدوء ودخلت لتوقظه من نومه، فقد بدا لها أنه قد تأخر عن عمله.

فتحت الستائر ونظرت إليه وهي تكرر اسمه ليستيقظ، لكن ما إن نظرت إليه حتى صرخت فزعة..

كان جبينه يتصبب عرقاً وجسمه يرتجف بقوة ودموع كثيفة تسيل من عينيه.

ركضت باتجاهه وهزته بقوة ثم رفعته إلى صدرها الدافئ، مكررة اسمه بذعر..

فتح عينيه بصعوبة، كان جسمه يهتز مرتجفاً، نظر إليها ثم دفن رأسه بقوة داخل صدرها وأخذ يبكي وينحب كالأطفال.

على الفور صرخت أمه مُجدداً طالبة من أخته "سمر" أن تأتيها بكوب ماء، فشفاهه كانت جافة، ووجه مُصفراً متلبداً.

لم تعرف أمه ما حصل له، لكنها ظنت أن كابوساً قد جثم على صدره وتفكيره ليلة أمس، فأخذت تمسد على وجهه ورأسه وهي تقرأ مكررة عليه سورة الإخلاص لعدة مرات.

أما أخته "سمر" فانحنت تسقيه رشفات من الماء وهي تبسمل خائفة، كانت المرة الأولى التي ترى فيها أخاها "برهـان" يبكي وينحب كطفل تائه.

*****

أطلق علماء "الباراسيكولوجي" على قدرات الإنسان في التنبؤ بوقوع أحداث مستقبلية اسم "قدرة الإدراك المُسبق"، كذلك اعتبرت الفيزياء الحديثة أن "الزمن" هو البعد الرابع الذي تتحرك فيه الأجسام وتتشكل منها..

فصنفوا "الإدراك المسبق" ضمن القدرات التي تتجاوز حاجز الزمن، إنه تجاوز الحاضر نحو المستقبل القريب أو البعيد، وقد سجلت مراكز البحث العلمي في كل من جامعة هارفارد، وجامعة كورنيل، نظريات تثبت امتلاك بعض الأشخاص لقدرات "الإدراك المسبق"، كما وقامت أجهزة المخابرات مثل وكالة الاستخبارات الأمريكية (CIA) برعاية برامج خاصة لأشخاص يمتلكون قدرات الإدراك المسبق والاستشعار.

**المؤلف**

*****

اليوم أدركت أنني شخص مُعتنى به، وأن ثمة هدف من وراء أحلامي.

فهذه الأحلام لم تأتيني بشكل عشوائي؛ بل لها القدرة على التأثير بالواقع المعاش، إنها تجذبني إلى مركزها بصورة لا محدودة.

لقد تحققت نبوءة حلمي الأخير، فقد تعرض "آدم" في الصباح الباكر لحادث أثناء قيادته السيارة بين مدينة الشارقة ودبي، وتوفي بنفس اللحظة.

كان الحلم حقيقياً ودلالته واضحة.

أصبح الأشخاص الذين ماتوا في أحلامي شعلة حقيقية اتقدت بداخلي، ولن أستسلم حتى أخرج من هذه الدوامة منتصراً، أو أموت..

فمنذ عودتي من "الكويت" وأحلامي الظلامية هذه تُفقدني أقربائي وأصدقائي.

إنها متاهة وعلي أن أجد حلاً لها قبل قدوم الشهر التالي، وفقدان شخص آخر.

سابقاً وقبل حصولي على هذا الكتاب لم أكن أرى أحلاماً بهذا الوضوح أو يشوبها الغموض والخوف، لكن بعد أن حصلتُ عليه ووضعتهُ في غرفتي بات الأمر مريعاً.

اليوم عاهدت نفسي وبعد العودة من المقبرة حيث أودعنا "آدم"، أن لا أخرج للعمل من منزلي حتى أصل إلى حلٍ لهذه الأحجية الظلامية.

أحجية يبدو أنها تبدأ وتنتهي في المخطوطة التي أهداني إياها "سـيمان"، ذلك الرجل الذي أصبحت أكرهه بعد زياراته المتكررة في أحلامي، حيث يسرق مني شخصاً عزيزاً في كل مرة.

انتابني إحساس وأنا أُخرج الكتاب من كيسه القماشي وأفصل أوراقه عن بعضها البعض بأن الحلم لم يعد مُهماً، رغم أنه يتحقق بدلالته الحقيقية.

أما الآن فإن كوني مستيقظاً أبحث عن خفايا هذا السر، هو الأكثر واقعية من الحلم، وستكون أحلامي القادمة إما نعمة أو نقمة عليّ.

على الجدار الواسع والفارغ في غرفته قام "برهـان" بإلصاق جميع الأوراق الصفراء السميكة من الكتاب الذي أهداه إياه "سـيمان"، فالسر يكمن بين هذه الصفحات وعليه أن يصل إلى الحل.

استشعر بغريزته الإنسانية أن سفره إلى "الكويت"، وتعرفه على "سـيمان"، وحصوله على هذه المخطوطة، ثم فشل إقامته هناك، وعودته إلى دمشق، فظهور هذه الأحلام التي تنتهي دائماً بوفاة أشخاص من حوله ليست مصادفة؛ بل إن الأمر مُدبر ومُسير، وأمامه مغامرة أو هدف عليه تحقيقه ومعرفة السرّ وراء كل ما يحصل معه.

كان بإمكانه بكل بساطة أن يُخرج المخطوطة ويحرقها ثم يرمي رمادها في الهواء، ولكن ماذا لو عادت إليه هذه الأحلام مجدداً، وخطفت منه أشخاصاً جدد؟!.

كل ما كان يريده هو أن يلج إلى الحلم ويسافر فيه ليكشف حقيقة المخطوطة وحوادث الوفاة غير الطبيعية هذه.

*****

حين قمت بفصل أوراق المخطوطة عن بعضها البعض، اكتشفت أن ترتيبها الذي جاءت عليه لم يكن صحيحاً، أو هكذا تراءى لي، كما أن "سـيمان" لم يقم بترجمتها جميعاً.

ما لفت انتباهي حقيقة هو وجود الرسومات النباتية في كل صفحة تقريباً، وتَقصّد "سـيمان" ترجمة الأوراق التي لا تحوي أي رسومات.

قمت في المرحلة الأولى بفصل الأوراق الصفراء ذات الرسومات عن الأوراق التي تحوي أحرفاً ورموزاً غريبة، ثم بدأت بالتدقيق في الأوراق ذات الرسومات النباتية والرسومات الهندسية..

كانت أغلب الرسومات النباتية تدور حول شكل زهرة تنبت من أعلى الصفحة إلى أسفلها، وكأنها تنبت بشكل عكسي، إذ أن ساقها وجذعها في الأعلى ضمن دائرة سوداء، ثم تنزل صعوداً إلى أسفل لتشكل زهرة طولانية غريبة الشكل.

أحضرت مكبرة يدوية وبدأت بالتدقيق في شكل الزهرة الخارجي، ورسم الكتابات المخطوطة داخل الزهرة على صفحة بيضاء خارجية.

لم يكن الأمر سهلاً، إذ أن التدقيق بهذه المخطوطة يحتاج لجهد ووقت كبيرين، لكن ما لفت انتباهي هو وجود رسومات صغيرة جداً لبشرٍ عراة يصعدون عكسياً باتجاه جذور النبات، وكأنهم ولدوا من داخل الزهرة وأخذوا يزحفون باتجاه الجذور، رسومات لذكور وإناث يتسلقون الزهرة بشكل عكسي!.

تأملت المخطوطات جميعاً بالعدسة المكبرة، فاكتشفت أن أغلبها تحوي نباتات تنبت عكسياً باتجاه جذورها السوداء، وكل سيقان النباتات عليها رسومات لبشر عراة يصعدون باتجاه الجذور.

فكرت أثناء بحثي هذا أن أطلب المساعدة من "سارة" لعلها ترشدني إلى بعض التفاصيل في حل هذا اللغز، خاصة أنها مثقفة في تاريخ الأساطير والأديان، لكني عدلت عن مثل هذا القرار، فالموضوع يخصني وحدي ولن

أُطلع عليه أحداً، ثم إن الموضوع بالنسبة لي يُعتبر خطراً فقد تكون هذه المخطوطة هي وراء وفاة خالي وجدتي وصديقي آدم بالفعل، ولا أود أن يتأذى أي شخص منها.

*****

أمضى "برهـان" يومه الأول في محاولة فهم الترتيب الحقيقي للمخطوطات خاصة بعد مشاهدته لرسومات صغيرة جداً مرسومة ضمن ساق النباتات تزحف من الزهرة باتجاه الأعلى حيث الجذور.

دخلت أمه غرفته صباح اليوم التالي، كان مستغرقاً في النوم من شدة تعبه، إذ أنه أمضى الثلث الثالث من الليل وهو يحاول استكشاف المخطوطات.

نادت على اسمه، وهي تفتح الستائر، فتحرك قليلاً من سريره، ثم نظر إليها قائلاً:

- صباح الخير أمي.. كم الساعة؟
- صباح النور حبيبي، إنها التاسعة والنصف.

جلس على حافة السرير، ونظره مُثبتٌ على الأرض، نظرت أمه إلى كامل الغرفة فشاهدت فوضى الأوراق الصفراء على الحائط، وأوراق وكتابات غريبة:

- برهـان ما كل هذا؟

رفع برهـان رأسه إلى الحائط، ثم أعاد النظر إليها مبتسماً:

- لدي بحث جديد لأحد الصحف العالمية المهمة، وعليّ إنهاؤه بأقرب وقت.

اقتربت منه، وجلست بجانبه على السرير، وضعت يدها على جبهته ثم مسدت شعره وضمته إلى كتفها:

- انتبه إلى نفسك حبيبي، فمنذ أن راودك ذاك الكابوس، ووفاة جارنا "آدم" وأنا قلقة عليك، لا شيئ يهمني في هذه الحياة سوى أنت وأختك وأخوك، وأخاف كثيراً أن يصيبكم مكروه لا سمح الله.

أمسك يدها وسحبها إلى شفتيه، قبلها، ثم قال لها:

- لا تقلقي يا أم برهـان، كل شيئ على ما يرام، الله يطول بعمرك.
- هل ستذهب إلى عملك اليوم؟
- لا سأخذ إجازة لمدة إسبوع، عليّ إنهاء البحث.
- سأعد لك القهوة.

قامت من مكانها، وخرجت من الغرفة باتجاه المطبخ، أما هو فاتجه إلى الحائط وأعاد النظر إلى المخطوطات المثبتة، أخذ يتأملها وشعر بإحساس السخرية، بدأ يضحك بصوت عالٍ وقال بصوت مسموع يحدث نفسه:

ما هذا الجنون الذي أفعله؟!!!

رنّ هاتفه الخلوي، اتجه إليه ونظر إلى المتصل، كان اسم "سارة" ظاهراً على شاشة الجوال الصغيرة، فتح الخط:

- سارة الحلوة، كيف حالك؟

جاء صوتها الدافئ الحنون:

- الحمد لله، كيف حالك أنت؟، لم أسمع صوتك منذ عدة أيام، أردت الإطمئنان عليك.
- شكراً لك، لكنني أشعر ببعض التعب، فقررت أخذ إجازة لمدة أسبوع، أريد أن أرتاح قليلاً.
- حسناً، فقط أردت الإطمئنان عنك.

- شكراً لك مجدداً، حين أقرر الخروج من المنزل سأتصل بكِ.
- اتفقنا، إلى اللقاء.

وضع الهاتف جانباً، وأخذ يفكر بها، ويستذكر الكلام الذي تحدثت به حول الأساطير المقدسة القديمة عن السفر إلى السماء، أو ما يعتبر كالسفر عبر الزمن تاريخياً.

تذكر قصة أهل الكهف ونومهم العميق لمئات السنين، وقصة إسراء ومعراج النبي، والقديس الزرادشتي "آردا فيراف" ورحلته لمشاهدة المستقبل في السماء، وقصة الملك "إيتانا البابلي" و"إيليا النبي" في المعراج اليهودي.

وقف واتجه مجدداً إلى المخطوطات على الحائط، نظر إلى ساق النباتات والصور الصغيرة لبشر يصعدون عكسياً باتجاه الأعلى نحو الجذور، فكر قليلاً وقال في نفسه:

"هل يعقل أن يكون معنى هذه الرسومات هو معراج نحو السماء لمشاهدة المستقبل"؟.

أمسك الكرسي سحبه وجلس إلى طاولته مُخرجاً الأوراق البيضاء التي ترجمها "سـيمان"، وضعها أمامه، وأخذ يعيد كتابتها بخط واضح محاولاً تهجئة الترجمة ذات الخط السيئ.

"عَظَمة الرحلة الروحية، تكمن في أنك ستكتسب القدرة الكاملة لذاتك، ستكون السجين والسجان لنفسك، ستكون الظاهر والباطن في أحلامك، ستكون الضحية والقاتل، فكل شيئ سيسير على ما يرام فيما إذا نظرتَ إلى أعلى حيث مرآتك هي نافذتك لتلج إليّ، انظر إلى أعلى، إلى مرآتك ومنها ادخل عالمي الحقيقي، فالحقيقة وراء مرآتك".

كانت الجملة التي كتبها واضحة ولكنها لا تحمل سوى معانٍ غامضة بالنسبة له، فما هي الرحلة الروحية، وما هي المرآة التي تكمن الحقيقة خلفها؟.

دخلت أمه الغرفة مجدداً حاملة معها فنجان القهوة وبعض الكعك الذي أعدته مُسبقاً بنفسها، شاهدته متكوراً على أوراقه يكتب ويسجل، فلم تشأ إزعاجه أو مقاطعته، وضعت القهوة والكعك وخرجت، أما هو فلم يشعر بوجودها نهائياً إذ كان مُستغرقاً في تفسير ما ترجمه "سـيمان" من المخطوطة.

عاد وأخرج ورقة جديدة من الأوراق المُترجمة وأخذ يفك معاني الكلمات من خط "سـيمان" السيئ.

"ستعيش في عدة أبعاد من الوقت ذاته...

ما عليك سوى أن تختار مرآتك الباطنية عبر ساق النبات الذي ينمو من الأعلى إلى أسفل حيث رأسك،

عندها سيظهر لك كيان عالق في زمان ومكان خادع،

ستعيش في عدة أبعاد من الوقت ذاته...

ستعيش في عدة أبعاد من الوقت ذاته...

ستعيش في عدة أبعاد من الوقت ذاته".

استغرب "برهـان" لماذا كرر "سـيمان" الجملة الأخيرة ثلاث مرات، ثم إنه ذكر ساق النبات الذي ينمو من الأعلى إلى أسفل، أحس أنه أمسك رأس الخيط.

اتجه إلى المخطوطات، وبحث عن نص مكرر من الرموز لثلاث مرات، بذلك سيعرف المكان الذي ترجمه "سـيمان"، استغرق في البحث فترة ليست بالقصيرة، وأخيراً وجد نصاً من الرموز والرسومات الحرفية

الصغيرة مكررة لثلاث مرات، أمسك المخطوطة رفعها إلى الضوء القادم من النافذة، ليتفاجأ بشيئ غريب.

حين دخل الضوء إلى المخطوطة شاهد رسمة غريبة مكملة للرسمة التي تظهر واضحة، شاهد رجلاً نائماً واضعاً يديه على صدره، وساق النبات مثبتة في السقف الذي فوقه ضمن دائرة سوداء، حيث يخرج الساق من جذوره المعلقة في الدائرة السوداء باتجاه رأس الرجل النائم، ثم تظهر الزهرة الكبيرة مكان رأسه، وعلى الساق شاهد رسماً خفيفاً لرجل آخر يتسلق ساق النبات باتجاه الجذور أو الدائرة السوداء.

كانت المخطوطة أكثر وضوحاً في ضوء الشمس الداخل من النافذة.

شعر ببعض الخوف والارتياب من هذه المخطوطة، ومن الطريقة التي رُسمت بها، هو لا يؤمن بالسحر والشعوذة والجن والحياة الغيبية والغامضة ومثل هذه الأمور، لكنه حين شاهد هذه المخطوطة شعر بشيئ من الخوف يعتريه.

أنزل المخطوطة من أمام عينيه فشاهد على الفور فنجان القهوة وقطعة الكعك، نظر إلى الباب فوجده مُغلقاً، صرخ منتفضاً إلى الخلف للحظة، وسأل نفسه بريبة وصوت مسموع:

"من أدخل القهوة والكعك إلى الغرفة؟؟"

تراجع خطوة فتح الباب وخرج مسرعاً ليسأل أمه كيف دخلت القهوة إلى غرفته بهذا الشكل.

*****

لا تبقَ في الماضي، ولا تحلم بالمستقبل، بل وجه عقلك الباطن نحو الآن، الآن فقط.

**بوذا**
**زعيم روحي ديني**

* * * * *

مضى على إجازتي واعتكافي ضمن غرفتي خمسة أيام متتالية، لم أكن لأهتم بشعث شعري وذقني التي ازداد طولها بشكل كبير وواضح.

اليوم تحديداً توصلت إلى ترجمة وتنسيق آخر للمخطوطات، فقد تبين لي أن جميع الأوراق الصفراء التي تحوي رسومات للنباتات لها صورة أعمق لشخص نائم على ظهره ينظر إلى أعلى، وشيئ ما يشبه روحه تتسلق النبات باتجاه الدائرة السوداء التي أمامه، ومن خلال ربط الرسومات ببعضها البعض صرت شبه متأكد بأن ما يقصده هذا الكتاب هو رحلة عبر الأحلام وليس رحلة عبر الزمن كما ظننت، خاصة أن جميع الترجمات التي ترجمها "سـيمان" من الكتاب كانت تدل على نفس المعنى تقريباً:

"إن أحلامك مرآة لكون محايد شفاف لا يعرف سوى الحقيقة، إنه مرآة الأحلام تعكس ما هو أمامك دون تشويه، فإذا استطعت أن تثق بذلك تكون عندئذ قد اتخذت الخطوة الحاسمة للتخلي، ونقطة التخلي هي أن تتخلى عن عالم خارجي مزيف، للولوج إلى عالم الحلم الذي لا يملك سلطة عليك، وحينها ستعيش في عدة أبعاد من الوقت ذاته ".

لاحظت هنا أن "سـيمان" أعاد نفس الجملة، "ستعيش في عدة أبعاد من الوقت ذاته"، وهنا صرت أرى أن المخطوطة مرتبطة كل الارتباط بالأحلام التي نحلم بها ونحن نيام، وأظن أن المخطوطة ليست سوى دليل إرشادي لمن يود أن يدخل أحلامه وهو في حالة يقظة كاملة، يدخله ليستكشف خفايا الأحلام بإرادته الحرة.

إذا ما استطعت فعل ذلك سأكشف أموراً كثيرة، وأظن أن طريقة دخولي لأحلامي بوعيي الكامل تشبه إلى حد كبير فكرة السفر عبر الزمن،

فالسفر عبر الزمن لا يتم إلا خارج إطار الزمن والمكان الحاليين، وكذلك هو الدخول إلى عالم الأحلام بشكل واعٍ، إنه التجول خارج الزمن، فنحن حين ننام لا نشعر بمرور الوقت، وهذا هو المعنى.

رفع "برهـان" عدة مخطوطات إلى أعلى نحو ضوء النافذة وأخذ يتأمل الصور المخفية للرجال النائمين تحت زهرة تصل بين رؤوسهم وبين دائرة سوداء في الأعلى.

أثناء ذلك طرقت أخته على باب غرفته، فقال دون أن يلتفت:

- ادخل.

فتحت أخته "سمر" الباب ونظرت إليه باستغراب، وقالت له بكل هدوء:

- برهـان، يوجد فتاة اسمها "سارة" جاءت لمقابلتك.

حين سمع باسم "سارة" وضع الأوراق من يده وانتفض واقفاً:

- أين هي؟

- مدخل الباب تنتظرك.

على الفور نظر إلى نفسه في المرآة فشاهد وجهه الشاحب، وذقنه الطويلة، وشعره الأشعث، حاول أن يلملم نفسه قبل أن يخرج من الغرفة، لكنه تفاجأ بجرأة "سارة" وقد دخلت على الفور وصارت بوجهه عند باب غرفته:

- سارة!!! أهلاً وسهلاً، أهلاً بكِ تفضلي.. تفضلي إلى غرفة الاستقبال.

كان التوتر والارتباك واضحاين عليه، خاصة أنه يرتدي ثيابَ النوم التي لم يبدلها منذ خمسة أيام، أما هي فنظرت إليه باسمة:

- أعتذر لكوني جئت دون موعد، لكنني اتصلتُ عليك عدة مرات، وكان هاتفك خارج التغطية، فشعرت بالخوف وجئت للإطمئنان عنك.

تذكرتُ أنني لم أشحن جوالي الصغير منذ يومين.

رافقتها أختي إلى غرفة الاستقبال، أما أنا فقمت بتبديل ملابسي، وتصفيف شعري قبل أن أذهب للجلوس معها.

حين دخلتُ غرفة الاستقبال كانت "سارة" تتحدث مع أختي بكل عفوية وحماس وهما تضحكان، فسارة لديها قدرة كبيرة على استيعاب الآخرين وفتح الأحاديث الممتعة، إنها تملك قابلية للتحدث والتشعب بصورة عجيبة.

حين جلستُ مرحباً بها، أدارت الحوار كله نحوي لتستفسر عن أحوالي بعد فترة الانقطاع تلك، في هذه الأثناء وقفت "سمر" مستأذنة بالخروج لإعداد القهوة.

كانت هذه المرة الأولى التي تأتي فيها إحدى صديقاتي لزيارتي بصورة شخصية في منزلنا، وهذا ما جعل الأمر يبدو غريباً بالنسبة لأمي ولأختي، فحتى "صوفيا" التي دامت علاقتي العاطفية بها لعدة سنوات لم أجرؤ يوماً بأن أدعوها للمنزل، رغم أن أمي وأختي تعرفان برابط العلاقة بيننا، لكن هذا الأمر يعتبر خارج العادات والتقاليد والأعراف الدينية في العائلة.

كنت أرى نفسي شخصاً مُنفتحاً وأفكر خارج صندوق العادات والتقاليد بل وحتى خارج التقاليد الدينية، لكن احترامي لأفكار أمي وأختي المختلفة عن أفكاري وقف حائلاً في أن أدعو الفتيات لزيارتي في المنزل، رغم أن هذا الأمر بالنسبة لي يعتبر طبيعياً..

لكن حين أسأل نفسي هل كنتُ لأقبل أن يأتي شاب لزيارة أختي في منزلنا ويجلسان لوحدهما دون وجود رابط رسمي بينهما كالخطبة مثلاً؟

سيكون الجواب بالطبع لا، لن أسمح، ولا أعرف في الحقيقة سبب هذه "الشيزوفرينيا" الشرقية التي نعاني منها نحن معشر الذكور.

دخلت أمي مُرحبة بـ"سارة" مقدمة لنا القهوة بكل عفوية، وجلست لتتعرف عليها مُبدية لها بشكل ظاهري أنها سعيدة كونها جاءت لتطمئن عن أحوالي، خاصة بعد التغيرات النفسية التي أمر بها منذ أن سمعتُ بخبر وفاة صديقي "آدم".

وعلى عادتها انبلجت "سارة" مسترسلة بالكلام معها حول الصدمات التي قد نتعرض لها نحن الشباب خاصة تلك المتعلقة بفقدان أشخاص نحبهم، كان حديثها في الحقيقة ممتعاً، ولاحظت أن أمي التي لا تحب الكلام كثيراً قد اندمجت معها في الحوار، وأخذت تُحدثها عن ماضيها حين فقدت أبيها، ثم عرجت على حادثتي وفاة أمها وأخيها قبل فترة قصيرة.

كنت أنظر إلى وشاح أمي الأبيض وجلبابها الأسود غائراً بتفكيري في تلك البقعة السوداء المرسومة على المخطوطات، والتي خرج منها ساق النبتة عكسياً باتجاه رجل نائم لتتفتح زهرة غريبة الشكل عند رأسه، ثم ليخرج منه ما يشبه صورته متسلقاً هذه النبتة باتجاه الدائرة السوداء.

وأنا في خضم أفكاري، انتبهت فجأة لكلام أمي وهي تقول لها:

- استأذن أنا الآن، سررت بالتعرف عليكِ حبيبتي سارة.

وقفت "سارة" بكل أناقة، وصافحت أمي مجدداً قائلة:

- وأنا كذلك خالة، سررت بالتعرف عليكِ.

ما إن خرجت أمي من غرفة الضيوف وأغلقت الباب خلفها، حتى جلست سارة بالقرب مني واضعة يدها على يدي، ناظرة بتأمل إلى وجهي قائلة:

- برهـان أخبرني ما بك، أنا متأكدة أن شيئاً ما يشغل بالك وتفكيرك، أنت على غير عادتك.

تنهدتُ بعمق وأسندت ظهري إلى الخلف، ثم تحدثت معها بشكل جدي:

- في الحقيقة لا يوجد شيئ مهم، فوفاة خالي، ووفاة جدتي، ومن ثم وفاة صديقي، شكل لديّ صدمة نفسية قوية، وأحتاج فترة من الزمن لأخرج من هذا الإطار الضيق، فتناسي هذه الحوادث والعودة إلى حياتي بشكل طبيعي يحتاج بعض الوقت.

حركت رأسها وكأنها تعرف أن هذه ليست هي الأسباب الوحيدة لما أنا عليه، ثم قالت بكل هدوء:

- أخبرتني "سمر" أنك لم تخرج من المنزل منذ قرابة الأسبوع، وأنك معتكف في غرفتك تُعدُّ بحثاً مهماً لأحد الصحف العالمية؟

حركت رأسي بالموافقة:

- نعم، أخذت إجازة من عملي كما أخبرتك سابقاً، أما بالنسبة للبحث فهو مجرد مجهود شخصي أود تقديمه للنشر في إحدى الصحف الأجنبية.

ابتسمت ابتسامة غريبة، ثم قالت:

- ممتاز، وهل بحثك حول السفر إلى زمن المستقبل.

حين لفظت كلمة "السفر إلى زمن المستقبل" شعرت بصدى غريب وقوي في أذنيّ، فنظرت إلى عينيها بتعجب:

- وكيف عرفتِ ذلك؟؟

ضحكت بصوت مسموع، وقالت بشيئ من السخرية:

- أنت من أخبرني حبيبي هل نسيت؟؟!!

كانت هذه المرة الأولى التي تذكر فيها كلمة "حبيبي" ولكنها كانت ذكية بصورة كبيرة، إذ لفظتها بشكل ساخر، لكنني شعرت أنها تصنعتْ السخرية لتلفظ هذه الكلمة، فقد خرجت هذه الكلمة من قلبها بكل وضوح.

أعدت النظر إلى عينيها الصغيرتين الجميلتين وقلت لها باسماً:

- آآه صحيح لقد نسيت، أخبرتك بذلك حين كنا في المقهى ذلك اليوم، وبإمكانك اعتبار أن البحث يتحدث عن تحقيق صحفي حول قدرات الإنسان في اكتشاف الزمن منذ القديم وإلى عصرنا الحالي، خاصة أن كثيراً من العلماء توصلوا إلى نظريات مؤكدة بإمكانية الولوج إلى الزمن، لكن لم تتوفر لهم الأدوات الكافية لذلك.

حركت رأسها بالموافقة، ثم تحدثت بشكل جدي:

- إذا أردتَ بإمكاني تقديم المساعدة لك في البحث، وبإمكاني زيارة المكتبات الكبرى وتلخيص بعض الكتب التي تتحدث عن نظرية "سهم الزمن"، و"الثقب الدودي" أو مايسمى بـ"الثقب الأسود".

في الحقيقة كانت المرة الأولى التي أسمع فيها بهذه المصطلحات الفيزيائية حول الزمن، وحاولت التظاهر بأني أعرفها، لكن على ما يبدو أن "سارة"

ملمة بالأمر بشكل جيد، فهي تدرس "علوم التاريخ الحديث"، ولكي استدرك الموقف قلت لها على الفور:

- لا أريد أن أشغلك عن دراستك في الوقت الحالي، ولكن حين أصل إلى الجزء التاريخي سأخبرك لتساعديني.

ابتسمت بشكل عفوي قائلة:

- بكل سرور، فأنت غالٍ عليّ كثيراً، حين تصل إلى الجزء التاريخي ستجدني قادمة إليك بكل أبحاث الفراعنة حول الزمن.

نظرت إليها بتعجب قائلاً:

- وهل الفراعنة، درسوا السفر عبر الزمن؟
- طبعاً، فبعض الأبحاث بينت أن الحضارة التي بناها الفراعنة لم تأتِ بشكل عادي، بل كان بينهم أشخاص قادرين على معرفة نظريات في البناء، وربما نحن في زمننا هذا لم نتوصل إليها بعد.

ابتسمتُ بسخرية نوعاً ما:

- لا أظن أن الأمر بهذه الصورة، فنحن البشر حين نعجز عن تفسير أي ظاهرة عبقرية نردها إلى الأساطير أو إلى مساعدة الآلهة للإنسان أو كما تقولين السفر عبر الزمن وإحضار معرفة الشعوب المتقدمة.
- لا.. لا تُجحف بهذا الشكل بحق الحضارة الفرعونية، فالكتابات المصرية القديمة المعروفة باسم "طائرات الهليكوبتر الهيروغليفية"، هي أكبر دليل على أن الحضارة الفرعونية القديمة وضعت المروحيات والمركبات الفضائية الحديثة في أعمالهم الفنية، وذلك كما

ورد في كثير من كتب المستشرقين، كما أن آثارهم ورموزهم التي رسموها مازالت موجودة.

من خلال زيارة "سارة" هذه، بدا لي أن أمامي مزيداً من مفاتيح المعرفة التي عليّ استكشافها، والبحث عنها ومحاولة ربطها مع المخطوطات الصفراء التي لدي، لعلي أصل إلى ما أحتاجه.

وقفت "سارة" بعد كلامها الجميل والعلمي الممتع، وقالت بكل رومانسية:

- برهـان، أرجوك انتبه لنفسك، وسأنتظر اتصالك للمساعدة، سأكون فرحة إن شاركتك بهذا البحث، فأنت غالٍ على قلبي.

ابتسمت لها:

- وأنتِ كذلك غالية على قلبي كثيراً، وفي أقرب وقت ستجدينني اتصل بك لنلتقي مجدداً.

تنهدتْ بعمق واضح وهي تنظر إلى عينيّ، ثم رفعت يدها الناعمة بكل عفوية ومررتها على ذقني الطويلة وقالت ضاحكة:

- ذقنك هذه جميلة ومثيرة للغاية، حاول أن تشذبها وتعتني بها.

وضعتُ يدي على يدها وقد شعرت بإثارة جنسية واضحة من ملامسة يدها لوجهي، فسحبتْ يدها واقتربت أكثر باتجاه وجهي، شعرتُ أنها ستقبلني على شفتيّ؛ لكنها همست بوجهي بصورة مثيرة حتى أنني شعرت بهواء زفيرها يلامس وجهي:

- برهـان أنا أحبك.

ثم حملت حقيبتها اليدوية وخرجت مسرعة.

بعد جملتها الأخيرة تسمرتُ في مكاني تائهاً، فقد تفاجأت بجرأتها على لفظ تلك الكلمة مقتربة من وجهي مسافة كبيرة، وكأنها كانت تريد أن تتلامس شفاهنا معاً بقبلة سريعة، أو كانت تريد مني أن استنشق هواء زفيرها الخارج من فمها بلفظها لكلمة "أحبك".

سمعتُ أمي وهي تودعها عند مخرج البيت، وتطلب منها البقاء لحين وقت الغداء...

لكنها اعتذرت بلطف وغادرت تاركة جسدي مثقلاً بين أفكار غريبة تتماوج بعقلي من جهة، وبين مشاعر هائجة تشعل النار بجسدي من جهة ثانية.

* * * * *

كشفت صحيفة "إكسبريس" البريطانية عن وجود دلائل تشير إلى سفر الفراعنة عبر الزمن وجلبهم لتكنولوجيا تعتمد على نظريات فيزيائية لم تكن موجودة في عصرهم، فتمكنوا من رفع الحجارة وبناء الأهرامات والمعابد والمَسلات ذات الرموز الدينية..

وقالت الصحيفة إن الهرم الأكبر "خوفو" هو الدليل الأوضح، فرغم تحليله ودراسته من قبل العلماء إلا أنه لا يزال يحتفظ بكثير من الألغاز، حيث لقبته الصحيفة باسم "الهواء الأسطوري"، وأضافت الصحيفة أن حادثة النص الفرعوني في معبد "أبيدوس" هو أحد الأدلة كذلك، حيث نُقش عليه صور تشبه المروحيات والطائرات والمركبات حديثة

الصنع، كما أصبحت هذه الكتابات معروفة بين مجموعة كبيرة من العلماء باسم "الهيروغليفية الهليكوبتر"، وأكد بعض العلماء من بينهم "سكوت سي وارنج" Scott C Waring، قوله:

"إذا كانت الحضارة القديمة قد وضعت المروحيات والمركبات الفضائية الحديثة في أعمالهم الفنية، فعندئذ يجب أن يكونوا قد رأوها، أو على الأقل رأوا صوراً لها في المستقبل".

وأشارت الصحيفة إلى أنه تم تفسير الكتابة "الهيروغليفية" على أنها لغة أثرية تصور العديد من الرموز، ومنها طائرة مروحية، وأشياء تشبه التكنولوجيا الحديثة، وما يثير الانتباه بشكل أكبر هو أبعاد الطائرة الصحيحة تكنولوجياً في تحقيق نظرية التحليق المتوازن فيزيائياً.

*****

"السفر إلى الماضي شيئ ممكن عبر الثقب الدودي، وهذه الثقوب الزمنية هي بمثابة أنفاق عبر الزمان والمكان معاً "الزمكان"، إنها لا تربط مكاناً بآخر فقط، بل تربط لحظة بأخرى أيضاً، والمشكلة التي تواجهنا في السفر عبر الماضي هو أن الأشياء سوف تصبح مركبة وغريبة".

**ألبرت أينشتاين**
**عالم فيزياء ألماني المولد أمريكي الجنسية، صاحب النظيرة النسبية، حائز على جائزة نوبل.**

* * * * *

اليوم سأختبر نفسي بما يتخطى القيود التي تحولنا إلى عبيد للزمن، سأكون حاضراً مع نفسي بصمت، وسأرى كياني ينتشر في كل الاتجاهات ضمن أحلامي.

ففي نزولنا صعوداً من زهرة عقلنا الباطن، على ساق حبل الصلة بين وعينا ولاوعينا، وصولاً إلى دائرة جذور الأحلام السوداء الخارجة عن سيطرة الوقت علينا، عندها فقط سنكون قد نمنا نوماً عميقاً بإرادتنا ووعينا الكاملين.

حينها سأكون قد ولجتُ إلى أحلامي بأفكاري متجولاً خارج مسرحية هذا المكان والزمان.

وعندها فقط سأعيش حلمي وأسير ضمنه كيفما أشاء بعقلي الواعي والذي سيكون للمرة الأولى قد صار مُسيطراً على عقلي الباطن اللاواعي، عند هذه النقطة سأعيش في عدة أبعاد من الوقت ذاته.

لقد استطعت في يومي الثامن من التفكير بين هذه الأوراق المتناثرة في غرفتي؛ تحليل المخطوطات الصفراء وربطها بالأحلام التي راودتني، والتي كانت ذات دلالات صادقة على موت من كانوا فيها.

وكنت متأكداً أنني لو لم أقم بالوصول إلى هذه النتائج لراودني نفس الحلم للمرة الرابعة والخامسة وهكذا، ولوصلني خبر وفاة أشخاص لا أستطيع العيش دونهم.

فما قمت به وما سأقوم به ربما يصنف ضمن دائرة الجنون، إلا أنني مضطر للقيام به خشية أن أفقد أمي أو أختي أو أخي، عندها لن أُسامح نفسي بتاتاً.

لقد عرفت من خلال تراتبية الأوراق والترجمات والرموز الموجودة هنا، أن الإنسان يستطيع السفر عبر الزمن، بل ويستطيع ذلك وبكل سهولة، وهذا يتم من خلال عدة أمور ربما لم يولِها علماء الفيزياء أمثال "آينشتاين"، و"نيوتين"، و"آرثر إدنغتون"، وغيرهم الكثير من الأهمية، رغم أنها قائمة على علم "الباراسيكولوجي"، حيث يكمن حلها في نقطة إلتقاء وعينا وعقلنا الظاهر، مع لاوعينا وعقلنا الباطن.

هذا الالتقاء لا يتم إلا من خلال لحظة زمنية تُقدر بثانية أو ثانيتين أثناء نومنا، أي في الفترة التي نكون فيها قد وصلنا إلى بدء الغفو والدخول إلى عالم النوم.

فما بين العقل الباطن والعقل الواعي خيط بسيط يفصل بينهما، إن استطعنا أن نُمسك بهذا الخيط فسندخل عندها عالم النوم أو عالم الأحلام بعقل واعٍ ضمن قدرات العقل الباطن، أي ندخل بإرادتنا وبأفكارنا، ونكون قادرين على التجول في الزمن ومقابلة أي شخص نريده دون أي عناء.

أما هذه المخطوطات فقد قدمت لي طريقة غريبة وسهلة، إنها تقوم على رسم تصورات نفسية ضمن ذاكرتنا قبل نومنا بعدة ساعات، فقبل الولوج إلى النوم ستكون الرسومات قد ارتسمت بذاكرتنا وستقوم بفعل يسميه علماء النفس بالتنفيس الانفعالي، أو إعادة التوجيه النفسي.

هذه الرسومات تنطبع بعد رؤيتنا لها في عقلنا الباطن، فتنقلنا قبل نومنا خارج الواقعية، لتمنحنا فرصة لظهور التصورات الخارقة الكامنة في أنفسنا، ضمن بصيرة حية خارجة عن الزمان والمكان.

وهذه البصيرة تسمح لنا بزيارة الآخرين ومحادثتهم في أحلامهم بوعينا الكامل، أما هم فيحدثوننا ضمن أحلامهم بإرادة مسلوبة أو دون وعي منهم.

والطريقة تكمن في رسم دائرة سوداء على السقف الموازي لوجهي أثناء نومي، مثل اللوحات المرسومة للرجل النائم ضمن المخطوطة، ثم النظر إلى الرسومات النباتية في اللوحات ووضع لوح النجمة الزرقاء تحت رأسي، فما سيحصل حينها وقبل أن أغفو سأشعر وكأن ساق نبات أخضر خرج من البقعة السوداء واتجه نحو رأسي، وحين تخرج الزهرة سأشعر أن جسدي ثابت بينما نفسي أو روحي ستخرج منه خفيفة كأنها بوزن ريشة صغيرة.

سأمسك ساق النبات ذلك وأصعد ببطء شديد نحو جذور النبتة في الدائرة السوداء، حين أصل سأجتاز الدائرة لأَلجَ إلى عالم الأحلام الواعي حيث لا مكان ثابت ولا زمان يمر، حينها سأتجول بحثاً عن الحقيقة التي أريدها.

*****

"بعض الرسومات والألوان الغريبة قد تعطي الإنسان تصورات حول القوى الخارقة الكامنة في نفسه، وقد تساعده على توليد بعض الأفكار المرتبطة بقوى خفية، فالرسوم القديمة التي خلفتها حضارات الفراعنة والنقوش الفارسية والهندية والصينية والبابلية، كانت تحمل دلالات روحانية متعددة، إنها تفتح بصيرة الإنسان، وتغير في بعض الأحيان مجال الطاقة المحيط بالجسم البشري".

**ألان بادلي**
**طبيب نفسي بريطاني،**
**أستاذ علم النفس في جامعة**
**يورك، عمل في تخصص**
**الذاكرة العاملة المتعددة.**

*****

**التاريخ: ٢٠- نوفمبر/ تشرين الثاني**
**الزمن: ١١:٠٠**

كنت بحاجة للنزول إلى السوق وشراء علبة من الصبغ الأسود، لرسم دائرة سوداء فوق سريري بالضبط، ثم كان علي تحديد المخطوطة التي سأضعها تحت الوسادة قبل نومي، وبعدها سأقوم بحرق كل المخطوطات الصفراء الأخرى قبل أن أذهب إلى السرير للنوم.

بدلّت ثيابي وخرجت مسرعاً باتجاه السوق الشعبي القريب من منزلنا.

حين خرجت إلى الشارع، شعرت ببعض الغرابة في مشاعري، شعرت وكأنني أودع هذه الحياة.

لكن لم تكن مشاعري واضحة بشكل كبير، ربما اجتاحني هذا الشعور بسبب عدم خروجي من المنزل لما يقارب العشرة أيام.

اشتريتُ علبة الصبغ الأسود وفرشاة صغيرة، وحاوية مكتبية حديدية صغيرة، وعدت إلى غرفتي.

على الفور أحضرت السلم المعدني وصعدت أعلى سريري وبدأت برسم الدائرة بعد أن أقفلتُ باب الغرفة كوني لا أود مناقشة هذا الموضوع مع أمي أو أختي.

توقيت النوم الذي ذُكر برمزيته في أحدى المخطوطات كان يشير بحسب ما أتوقع إلى الساعة الثانية عشر بعد منتصف الليل، وهو التوقيت الذي سأتجه فيه إلى السرير.

بعد أن انتهيت من صبغ الدائرة السوداء، شعرت أنني مشتاق للجلوس مع أمي وسمر وبلال، وكأنني لم أرهم منذ زمن...

شعرت حقيقة أنني سأسافر هذه الليلة، رغم علمي المُسبق أن الأمر لن يتجاوز ليلة واحدة أو أقل من ليلة، إنه عبارة عن حلم فقط، حلم يختلف عن باقي الأحلام كونه بإرادتي وحريتي ووعيي الكامل، وفي صباح يوم الغد سيكون كل شيئ قد انتهى، سأحرق الورقة الأخيرة المتبقية من المخطوطة، وسأدخل عالم الأحلام لأفسر ما حصل معي، أو سأفشل بذلك مرة واحدة وللأبد.

لكن في كلا الحالتين سأكون قد تخلصت من هذه المخطوطات الغريبة، وفي حال تكررت معي نفس الأحلام السابقة فلن أشعر بتأنيب الضمير حينها، سأومن أن الأمر بيد القدر .

*****

كان شعور "برهـان" مختلفاً هذه الليلة، فقد شعر أنه سيقوم بمغامرة غريبة، كما أن شعور السفر لم يفارقه، وهو نفس الشعور الذي شعر به قبل سفره إلى "الكويت".

جلس في غرفة الصالون بين أمه وأخته وأخيه بلال الصغير المشاكس يتابع معهم أحداث حلقة من مسلسل تراثي شامي يحكي عن العادات الشامية القديمة.

عند انتهاء المسلسل جلس يلعب مع "بلال" بعض ألعاب الفيديو كما كانوا في السابق، ثم قبّله مُداعباً، وقام من مكانه، قبّلَ رأسي أمه وأخته على غير عادته، وطلب من أمه أن توقظه باكراً، ثم اتجه إلى غرفته.

شعرت أمه أنه ليس على ما يرام، لكنها لم ترغب في إزعاجه، فقط اكتفت بالدعاء له بحسرة.

ضمن غرفته الصغيرة قام بإقفال الباب، ثم أخرج الورقة المحددة من المخطوطة، نظر إليها نظرة أخيرة، تأملها وتأمل الرسومات التي رُسمت بداخلها، دوائر وحلقات دائرية تتوسطها نجمة ثُمانيّة طولانية، ثم وضعها تحت وسادته.

بعد ذلك حمل الحاوية الحديدية ووضع بداخلها كل ما تبقى من المخطوطة والأوراق التي ترجمها "سـيمان" والملاحظات التي كان يكتبها هو بنفسه، دفع كل الأوراق بشكل قوي إلى أسفل الحاوية المعدنية الصغيرة، ثم اتجه نحو النافذة، فتحها وأشعل النار بالحاوية تاركاً دخان حرق المخطوطة يخرج من النافذة باتجاه المدينة ذات الأبنية العالية.

حين تأكد من أن جميع الأوراق قد احترقت بشكل كلي، أغلق النافذة وأسدل الستائر.

نظر إلى ساعته كانت تشير إلى الحادية عشر وخمسين دقيقة، اطفأ الأنوار، ثم خلع ثيابه كلياً، ودس نفسه عارياً في سريره تحت الغطاء، تنفس بعمق، وأمعن النظر باتجاه الدائرة السوداء التي بالكاد كانت ظاهرة في سقف الغرفة، تنهد مجدداً وأخذ ينتظر اللحظة التي ستخرج فيها النبتة من الدائرة بنفس الوقت الذي سيغفو فيه.

بدأ جسده يسترخي شيئاً فشيئاً...

أخذ تنفسه ينخفض...

ودقات قلبه تستقر..

أما عيناه فبالكاد كانت قادرة على النظر إلى الدائرة السوداء الموازية لرأسه الثقيل..

شعر للمرة الأولى بثقل رأسه على الوسادة الناعمة..

وسادة تُخفي تحتها المخطوطة...

تخيل المخطوطة غريبة التصميم، وركز بذاكرته الباطنة على رسوماتها..

لا يُعرف من رسم هذه المخطوطة أو من كتبها أو من حافظ عليها حتى وصلت إلى "سـيمان"، ومن سـيمان إليه..

سـيمان، سـيمان، سيماااااان.

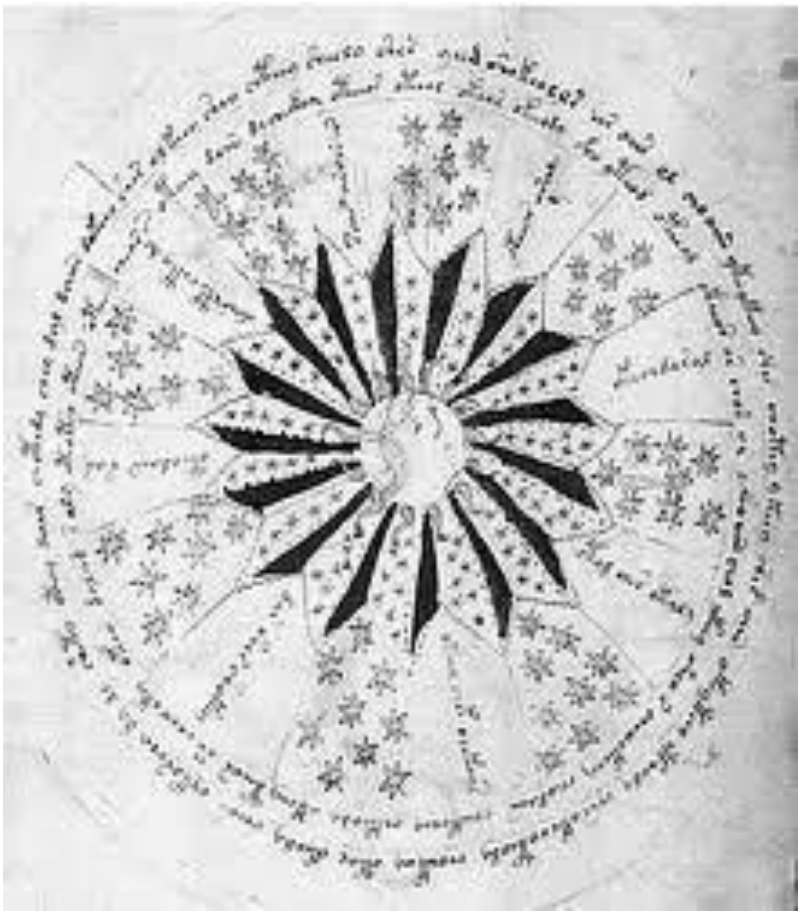

"إن فقدان الاتصال مع الواقع لن يستغرق سوى لحظة ضئيلة من اضطراب الدمج بين الوعي واللاوعي، فلا شيئ هنا خارج الذات، وبمجرد أن تبدأ في تقبّل هذه الجزئية الصغيرة من المعرفة، فإن الهدف الأساسي من الحياة سيتغير، إن الهدف الوحيد الذي يستحق العناء، هو تحقيق الحرية الكاملة في أن تكون نفسك، في حلمك دون أوهام، ودون معتقدات زائفة".

**ديباك شوبرا**
**طبيب وكاتب أمريكي،**
**هندي الأصل، مؤسس مركز**
**شوبرا للصحة الروحية**
**والذاتية في كاليفورنيا**

*****

صوت طنين قوي في أذني.. طنين مزعج لا يتوقف..

صوت الطنين يرتفع ضمن عتمة كاملة سوداء، أحاول فتح عينيّ لكن الأمر أشبه بالمستحيل..

صوت الطنين يعلو أكثر وأكثر..

أشعر أن وزني خفيف للغاية، خفيف للدرجة التي تجعل جسدي يطفو ويرتفع عن سريري كرواد الفضاء..

كأن جاذبية الأرض معدومة، ووزني بوزن ريشة صغيرة ولربما أقل..

أرتفع إلى أعلى، أحاول فتح عينيّ لكنني لا أستطيع، وصوت الطنين أصبح أكثر إزعاجاً..

أشعر أنني ارتفعت فوق سريري لأكثر من مترين، صوت الطنين مازال قوياً..

لامس جسدي سقف الغرفة كبالون مطاطي ممتلئ بغاز الهيليوم..

ثم عاد الثقل إليه مجدداً، وهبطت ببطئ شديد نحو سريري، بصعوبة بالغة فتحتُ عينيّ، وأول ما نظرت إليه هو البقعة السوداء على سقف الغرفة..

كانت غريبة ومُخيفة بشكل لا يتصوره عقل، لقد تحولت إلى تجويف أشبه بالخندق أو باب مغارة أو ثقب معلق في السماء.

* * * * *

في كل لحظة تمر بنا، نشعر فيها وكأن الزمن مثل النهر يندفع بنا إلى الأمام دون توقف، لكن نهر الزمن أثناء النوم يشبه النهر المتجمد، فكل لحظة فيه تكون مجمدة، ولمعرفة مكنون الزمن الحقيقي علينا أن نستفيد من القوى المألوفة التي تبقينا مثبتين على الأرض، فقوة الجاذبية لها تأثير عميق على حركة الزمن من حولنا، فالواقف على جاذبية الأرض يمر عليه الوقت أطول من الواقف على جاذبية المشتري، وهذا ما يسمى بطبيعة "الزمكان".

**ألبرت أينشتاين**

*****

# الفصل الثاني

**العام: لا يوجد - غير محدد.**
**التاريخ: لا يوجد - غير محدد.**
**الزمن: ١٠:٠٠**

أنا أتعاطف معك، وأشعر بما شعرت به..

لذا سأساعدك على الخروج من ذلك.. لكن لا تخشاني ولا تُبعدني عنك..

والآلام التي مرت بك هي جزء من طبيعتك...

هنا لن أتركك وحيداً، سأكون واقعياً معك قدر المستطاع، لن أخشى منك فلا تخشاني..

سأفعل كل ما بوسعي لترى معالم الطرق المظلمة أمامك...

فهنا يقف الوقت، ليسمح للروح أن تتعالى بجمال وعْيِنا،

ولتتذكر دائماً أنك ستعيش في عدة أبعاد من الوقت ذاته.

- سيماااان..

كان الصوت صوت "سـيمان"، أنا لم أغفُ بعد، فكيف سمعت صوت سـيمان يكلمني، كما أن أمي مازالت تغسل الأواني في المطبخ، أسمع صوت قرقعة الصحون والمعالق.

شعرت بثقل كبير في رأسي وبصعوبة شبه مستحيلة في تحريكه، أنا مازلت مستيقظاً لكنني أشبه بمن أخذ جرعة تخدير شامل، فإحساسي

بالواقع تاه بين الغفو والصحو، أسمع أصواتاً تأتي من داخل رأسي كتلك التي نسمعها قبل أن ننام بلحظات وكأن أحداً ما يكلمنا، في المقابل مازلت أسمع صوت قرقعة الصحون والمعالق في المطبخ!.

لم أعد أشاهد تلك البقعة السوداء التي رسمتها على سقف الغرفة، فعيوني أخذت تُطبق شيئاً فشيئاً، يبدو أنني فشلت في الولوج بوعي إلى عقلي الباطني، فما أشعر به شبيه بحالة ما قبل النوم أو ما قبل الغفو.

بدأت أجفاني تنطبق بصورة قوية رغم محاولاتي أن أبقيها مفتوحة، لكنني كنت مُرهقاً بالشكل الذي سيجعلني أعود إلى النوم بعمق.

ما إن أطبقتْ جفوني مستسلمة للنوم حتى تراءت لي صور النباتات والرسومات الغريبة في مخطوطة "سيمان" وأكثر صورة التصقت بذهني صورة تلك النبتة المتشعبة الخضراء، ذات الجذور المنبثقة من دائرتها السوداء.

ركزتُ بصيرتي الداخلية على البقعة السوداء فبدأت تتحرك..

بصعوبة بالغة فتحت عيني شاهدت البقعة السوداء التي أمامي وقد شعّ ضوء خفيف خلفها، مازلت أسمع صوت قرقعة الصحون...

ازداد الضوء المنبثق من الدائرة السوداء، من أين جاء هذا الضوء؟!

بعد ذلك شاهدتُ بوضوح خروج خيط رفيع جداً، بالكاد أراه، انبثق من منتصف البقعة السوداء باتجاه رأسي..

هنا، وهنا تحديداً شعرت بموجة خوف رهيبة تجتاحني، كل ما فعلته كان بدافع المعرفة، لكن أن يتحول هذا الأمر إلى حقيقة، فالأمر مخيف للغاية.

بدأ جسدي يرتجف بقوة، رجفات من الخوف والتوتر، أردت الصراخ والاستنجاد بأمي أو أخوتي، لكن فمي مكمم، ولا يخرج من حنجرتي أي صوت، تمنيت لو أن أحداً ما يدخل غرفتي، إنني أختنق..

كُبِتتْ أناتي وأصواتي بشكل كامل..

حاولتُ الحركة، حاولتُ الصراخ، حاولت النهوض، لكن دون جدوى، لم يكن بإمكاني سوى النظر وتحريك عينيّ..

كم تمنيت لو تدخل أمي غرفتي لتطمئن علي..

لو يدخل أخي الآن ليفتش بين حاجاتي..

لكن يبدو أن الأمر أكبر مني..

أخيراً، شعرت بالضعف أمام هذا الضغط الهائل الذي يجثم على صدري، فاستسلمت تاركاً الضغط والثقل يتمكن مني، شعرت حينها وكأنني أصبحت جثة شبه مشلولة.

إحساس أشبه بإحساس الموت، يبدو أن لعنة ما أصابتني، ربما كل ما فعلته كان عبارة عن تعويذة سحرية فعلتها بنفسي لخروج روحي من جسدي دون عودة..

ازداد تعرقي فجأة وبصورة كبيرة، ثم بدأتْ أنفاسي تخف شيئاً فشيئاً، وبت أشعر أن نبضات قلبي صارت تتباطأ لدرجة أن قلبي بالكاد ينبض..

أخيراً شعرت أن تنفسي توقف كلياً..

كما توقف التعرق، توقف النبض، وبدأ جسدي يبرد ويجف شيئاً فشيئاً.

أخذ الخيط يمتد أكثر وأكثر حتى لامس جبهتي، ثم شعرت أنني الآن حرّ بالتحرك والتجوال، حاولت النهوض...

وهنا شعرت بمفاجأة كبيرة.

كنت خفيفاً جداً، خفيفاً كريشة لا وزن لها، سحبت نفسي للأعلى، فارتفعتُ وكأنني أطير، أنا الآن أَشبَه برواد الفضاء، وكأنني خارج جاذبية الأرض، وربما أخف منهم بكثير.

بدأت أطير بشكل عشوائي في أرجاء الغرفة كالريشة التي تتهادى يميناً ويساراً بطيران عشوائي.

على الفور أمسكت الخيط وبدأت أسحب نفسي إلى الأعلى من خلاله، كان الأمر ممتعاً في الحقيقة وسهلاً، إلى أن وصلت إلى الدائرة السوداء التي رسمتها.

نظرت إليها، لكن ما شاهدته كان عبارة عن نفق أسود داخل الغرفة، كالثقب الأسود، نفق عمقه ما يقارب العشرة أمتار، وفي منتصفه يستمر الخيط بالعبور نحو ضوء قوي في عمقه.

أمسكت الخيط بقوة وأخذت ألجُ بكل سهولة وخفة داخل النفق الأسود.

قبل أن أصل إلى نهايته، التفتُّ إلى الخلف، فشاهدتُ جسدي مُمدداً على السرير، ثابتاً دون حراك.

كان النفق الأسود عبارة عن كوة في السقف تدخل إلى عالم الباطن، أو إلى عالم الحلم الحقيقي، أو هكذا ظننت.

حين دخلت النفق لم أشعر بالخوف أو الجزع، بل شعرت أن لا مكان آمناً لي سوى أن ألجَ إلى النفق؛ بل وشعرت أن ولادتي الأولى على هذه الدنيا كانت من خلال هذا النفق المظلم.

*****

## الحلم الواعي Lucid Dream:

"هو حلم يُدركُ صاحبه حقيقة أنه يحلم، وثمة إمكانية عالية لأن يتمكن صاحب الحلم من التحكم بحلمه وتغيير مجريات الأحداث فيه.

يمكن للحلم الواعي أن يكون واقعياً، وأول من اكتشف وجرب خاصية الحلم الواعي هم الإغريق..

يقول الفيلسوف أرسطو: "يحدث كثيراً عندما يحلم الشخص أن يخبره شيئ في وعيه أنه في حلم، حينها فقط يتملكه شعور الحقيقة".

وأول العلماء الذين تمكنوا من تجريب الأحلام الواعية هو الطبيب النفسي والكاتب الهولندي (فردريك فان إيدين)".

*****

ربما تستحق الحياة كل هذا الآلم الذي عانيناه منذ ولادتنا الأولى، وحتى نهاية حياتنا الأولى ضمن الزمان والمكان الأرضي هنا، وربما تستحق الحياة أيضاً مغامرة لكشف المجهول والمستور عنا، وهذا هو حب المعرفة، أو متلازمة المعرفة، فحبنا الخالد للمعرفة هو الذي جعلنا سادة الأرض، نبني ونطور ونكتشف ونخترع.

وأظن أنني أعيش اليوم تجربة تستحق مني كل هذا الآلم.

حين وصلتُ إلى كوة الضوء في نهاية النفق السقفي، تراءت لي مساحة واسعة، وكأنني وسط ملعب رياضي فارغ منبسط أملس، لكنه دون ألوان، عالم بلونين فقط الأبيض والأسود، أشبه بما يراه المصابون بعمى الألوان، أو بمشاهدة برنامج تلفزيوني قديم باللونين الأبيض والأسود.

شعرتُ في حقيقة الأمر أنني داخل حلم حقيقي هذه المرة، وربما بإمكاني العودة إلى غرفتي، ولكني لا أعرف الطريقة التي سألتحم بها مع جسدي مجدداً.

حاولت السير خطوة إلى الأمام، فسمعت الصوت نفسه، صوت "سيمان" الذي أعرفه.

- الآن أنا أتعاطف معك!!

نظرت حولي لا شيئ سوى الفراغ، فصرخت في المكان:

- سيمان، أين أنت؟ أريد رؤيتك!.

كانت المرة الأولى التي أستطيع فيها الصراخ والتكلم، فالضغط الذي تملكني على السرير قد ذهب بشكل مريح وهادئ.

في الحقيقة حين سمعتُ صوت "سـيمان" ورغم أنني كنت غاضباً منه ومستاء، إلا أنني شعرت بكثير من الأمان حين سمعته يكلمني، وفجأة انبثق أمامي وكأنه نَبَتَ من الأرض على حين غرة.

- برهـان.. كيف حالك؟ الآن فقط صدقتني.

كان شكله مختلفاً بعض الشيئ، وربما لأنني أراه بالأبيض والاسود فقط.

- سـيمان...أرجوك.. أرجوك.. لم أتِ إلى هنا لتطمئن عن صحتي، جئت إلى هنا لتفسر لي ما يحدث...

ابتسم ابتسامة عفوية وقال بكل فرح:

- برهـان، افرح يا رجل.. أخيراً تمكنا من الولوج إلى عالم الزمن، عالم الأحلام الذي كنا نحلم به، عالم سنتنبأ من خلاله بأحداث المستقبل، تماماً مثل أولئك المُنجمون والعرافون الذين تَصدقُ رؤيتهم للمستقبل، إنه العالم الذي ستقول فيه لاحقاً، لقد شاهدتُ هذا من قبل!.
- تقصد العالم الذي كنت أنتَ تحلم به.
- لا بل أنتَ كذلك حلمتَ بالوصول إليه، والدليل أنك واقف الآن أمامي.
- أنا أتيت إلى هنا مضطراً لذلك، مضطراً بعد مصائب الموت التي بدأت تأخذ مني من حولي، وكل ذلك بسبب تلك الأحلام اللعينة التي تظهرُ أنت فيها.

عاد "سـيمان" وضحك بطريقة فرحة، وكأنه لا يصدق هو الآخر أنه في عالم الأحلام خارج إطار الزمن:

- ما رأيك أن تترك هذا الحديث الآن، ونبدأ جولة بالصورة التي تعجبك أن تحلم بها أو يحلم بها الآخرون.
- لا... أريد بداية الأمر أن تجيبني عن بعض الأسئلة.

اقترب مني قليلاً، كانت ابتسامته واضحة على مُحياه وقال:

- حسناً، أنت تسأل وأنا أجيبك بكل شفافية.

حاولت أن أستجمع قوة ذاكرتي ليتسنى لي معرفة كل التفاصيل التي أريدها:

- هل أنا ميت الآن، أم أني أحلم، وهل بإمكاني العودة إلى جسدي؟
- أنت لم تمت، بل انفصلت عن جسدك بالصورة الطبيعية التي تنفصل فيها أنفسنا أو أرواحنا عن أجسادنا حين ننام، لكنك استطعت الانفصال بصورة واعية، أي بعقلك الواعي، فأنت الآن تعيش بقدرات عقلك الباطن وبإدراك عقلك الواعي.. وبإمكانك العودة إلى جسدك بالوقت الذي تريده، وذلك حين ترجع إلى نفس الكوة التي جئت منها، ما عليك سوى أن تُرخي نفسك وتسقط مع الخيط باتجاه دماغك، على الفور ستسمع صفيراً قوياً من خلال أذنيك، صفيراً أشبه بصوت محركات الطائرة قبل الإقلاع، وستصحى في جسدك مجدداً، فأنت خرجت من جسدك من خلال أذنيك، وستعود من خلال أُذنيك كذلك، فالأذن وحاسة السمع هي صلة الوصل بين قوة العقل الباطن وإدراك العقل الواعي أثناء النوم، لذلك نحن نصحو من نومنا إذا ما سمعنا صوتاً يوقظنا.
- مازلتَ على عادتك القديمة تثرثر كثيراً!!.

ضحك مجدداً وقال بكل بساطة وعفوية:

- هل انتهت الأسئلة الآن.. هل نبدأ جولتنا؟
- لا ليس بعد، ما أريد معرفته، هل المخطوطات هي وراء موت خالي وجدتي وآدم؟

نظر سيمان إلى عينيّ نظرة غريبة تشوبها مشاعر الحزن، اقترب قليلاً وقال بكل هدوء؟

- من الأفضل أن لا تعرفّ.
- لا.. من الأفضل أن أعرف والآن وهنا، ما علاقة المخطوطات بموتهم؟، ولماذا كنتُ أراك في أحلامي تُسقطهم من أعلى الجدار بنفس الوقت الذي يموتون فيه ضمن واقع حياتنا؟

اقترب أكثر ورفع يده ووضعها على كتفي، لكنني لم أشعر بأي ثقل، نظر إليّ نظرة حزن مجدداً وقال:

- لا يمكن للمخطوطة أن تتلاعب بقدرهم في الموت، لكنها قَرّبتْ الموتَ إليهم وأخبَرتكَ الأحلام بذلك.
- لو لم آخذ المخطوطة هل كانوا سيموتون؟
- كانوا سيموتون ولكن ليس بنفس التوقيت الذي ماتوا فيه.
- لو أحرقتها، هل كانوا سيموتون؟
- نعم.. كانوا سيموتون ولكن لن تُخبركَ الأحلام بموتهم، ولن يكون بإمكانك أن تلج إلى هاهنا.

شعرت ببعض الخوف من طريقة كلامه، فقلت له أخيراً:

- لماذا فعلتْ هذه المخطوطة كل هذا بي وبعائلتي وبصديقي؟
- لأنك أنت أردت ذلك!.
- أنا!!!!!
- نعم يا برهـان، أنت من أراد موتهم والتخلصَ منهم.
- كيف ذلك؟

أمسك يدي وتحرك ماشياً، فشعرت أني أتبعه دون إرادة، كأنني ريشة خفيفة أو عربة صغيرة فارغة:

- أرجوك يا "برهـان" لا تُكثر من الأسئلة التي لا أستطيع الإجابة عنها، ولكن إذا سرتَ معي هنا ستعرف ما يجب أن تعرفه.
- إلى أين نسير؟
- نحن في عالم التفكير الباطن، عالم أحلامك الواعية، وهذا العالم ليس وهماً أو أسطورة أو قصصاً خرافية، إنه عالم حقيقي خارجَ إطار الزمن فينا، وبما أنك استطعت الولوج إليه بقدرة عقلك الواعي، بإمكانك أن تزور أحلام أي شخص تريد، فهنا لا يمكن لهم أن يكذبوا عليك، سيجيبونك بكل صدق، لأنهم لا يتكلمون بإرادة منهم، بل يتكلمون بالحقيقة التي يعرفونها..
- هل تقصد أن بإمكاني الآن دخول حلم أي شخص أعرفه، وأن أسأله وهو يجيب بكل صدق دون أي كذب أو ابتذال.
- بالضبط، ألم تحلم سابقاً بأشخاص زاروك وتحدثوا معك بأشياء لربما تخجل أن تجيبهم عنها لو كنت مستيقظاً؟، ألم تحلم بي أنا زرتك وأخبرتك عن موت خالك وجدتك وصديقك؟.

استغربت من جملته الأخيرة، بالفعل إن الأحلام هي عبارة عن تصورات ومحاكاة للصدق الذي بداخلنا والذي قد لا نبوح به للآخرين، أو نخفي فيه أشياء سيئة فعلناها، لا بل هو ردة فعل لكل العقد النفسية والمشاكل التي قد نُنكرها بذاتنا.

*****

"حين يتمكن الإنسان من خلق الظروف الصحيحة لعقله، سيتمكن من الاتصال بعقل آخر دون واسطة مادية، وبإمكانه كذلك الاتصال بموجودات لا نراها يشعر بها دون واسطة، وبإمكان عقله كذلك تخطي المسافات الشاسعة والتأثير على محيطه بصورة عجيبة".

**فريدريك فان إيدن**
**كاتب وطبيب نفسي هولندي**

* * * * *

تحرك "برهـان" و"سـيمان" بخفة ضمن عالم حقيقي خارج الزمن والجسد، كان الحدث بالنسبة لبرهـان أشبه بالجنون أو الوهم أو بالحلم، فهي المرة الأولى التي يتعامل فيها مع روحه ونفسه بإدراك كامل، وأكثر ما كان يخشاه أن يُصاب بفصامٍ في شخصيته بعد ولوجِهِ إلى عالم أحلامه بإرداته الواعية.

هو يعرف أنه ضمن عالم العقل الباطن والعقل اللاواعي يكمن مستودع الأحلام الذي نراه كل يوم أثناء نومنا، وهو المكان الذي تتجول فيه أرواحنا خارج إطار الزمان والمكان، ومن يُسيطر على هذا العالم بوعيه، يكون كمن حصل على تذكرة سفر مجانية عبر الزمن، زمن صادق وواضح ومجاني، ولا يحتاج لآلة الزمن التي تحدث عنها "آينشتاين" ولا "للأثير" أو ما يعرف بحقل "هيغز" الذي تحدث عنه العالم "بيتر هيغز" لمعرفة الحقيقة الغامضة في مستقبل هذه الحياة، بل ويمتلك الشخص المسيطر على أحلامه قدرات خارقة أشبه بتلك القدرات التي نعرفها عن أشخاص يتنبأون بالمستقبل، أو بإمكانهم تحريك الأشياء عن بعد، والكثير من الخوارق التي قد نستغربها ونصنفها ضمن دائرة السحر والشعوذة.

ابتسم "سـيمان" ونظر إلى "برهـان الذي مازال يلتفت إلى الخلف خائفاً من الابتعاد عن مدخل النفق الذي جاء منه إلى هذا المكان الفاقد للألوان:

- لا تخف، سننهي ما جئنا لنراه ثم ستعود من نفس المكان الذي جئت منه.
- وإلى أين نحن ذاهبان الآن؟.
- إلى الموقع الذي أنت تريده!.

توقف "برهـان" فجأة، وقال مستغرباً:

- لم أفهم قصدك، أنا أسير معك!! ولا أعرف إلى أين سأذهب.

- "برهـان" أرجوك ركز في كلامي قليلاً، نحن الآن ضمن منطقة الباطن في حياتك، وكما قلت لك بإمكانك أن تلجَ إلى حلم أي شخص تريده، تطرق باب حلمه وتدخل، وحينها بإمكانك أن تسأله وتستفسر منه عن أي شيئ تريده.

نظر "برهـان" قليلاً إلى الأرض، ثم رفع رأسه وكأنه يفكر في أمر ما وقال:

- ولكن هذا لا يعتبر رحلة وسفر إلى زمن المستقبل.
- في الحقيقة أنت اخترت مخطوطة التجول في الأحلام، هذا ما طلبته، كنت تريد معرفة سبب الحلم الذي يراودك، والسفر لمعرفة الماضي، وهذا ما سنفعله الآن، فأرجوك فكر قليلاً، واختر اسم الشخص الذي تريد أن تلجَ إلى حلمه.

عاد برهـان وفكر من جديد للحظة، ثم رفع رأسه وقال:

- صوفيا..
- من هذه؟؟
- "صوفيا" فتاة كنت أحبها، واستمرت علاقتنا لعدة سنوات، لكن بعد أن عدتُ من "الكويت"، طلبتْ مني فسخ هذه العلاقة، مدعية أن الطريق الذي أمامي من أجل الارتباط القانوني بيننا طويل جداً، وآخر ما قالته أنها لا تود الزواج من شاب تائه بين فرصة عمل خارج بلده، وبين خوفه من خدمة العسكرية التي تُجمّد عمله ومستقبله لسنتين أو أكثر.
- هل كانت تحبك بالفعل؟
- كثيراً..

حين نطق برهـان بكلمة "كثيراً" انفجر "سـيمان" بالضحك ثم قال متمالكاً نفسه:

- واضح أنها كانت تحبك كثيراً.. هيا بنا إلى الكوة هناك، وسنجد فيها حبيبتك تلك.

استغرب "برهـان" من كلام "سـيمان" وسار خلفه.

مَشيا عدة خطوات ضمن ظلام المكان، إلى أن وصلا إلى كوة قطرها أقل من متر في نفس المكان الذي يشبه الملعب الممتد بشكل طولاني، كان بعض الضوء يشع من كوة أشبه بالحفرة الدائرية ضمن الأرض...

وقف "سـيمان على حافتها، بينما كان "برهـان" مازال يتحرك ببطء باتجاه الحفرة.

- أسرع قليلاً، لترى ما أراه.

وصل "برهـان" ونظر فوراً إلى عمق الحفرة، شاهد "صوفيا" نائمة على سريرها ملتحفة بغطاء سميك، وتشخر بصوت مسموع..

استرخى "برهـان" قليلاً وأخذ يتأملها، شعر أنه في غرفتها وينظر إليها من سقف الغرفة، نظر "سـيمان" إليه وقال:

- هل هذه حبيبتك "صوفيا"؟.
- تقصد التي كانت حبيبتي؟؟ نعم هي.
- هيا خذها إلى الحلم الذي تريد، وتحدث معها وهي ستخبرك كل ما تريد معرفته بشكل حقيقي لا لبس فيه.
- وكيف آخذها من هنا.

عاد وضحك "سـيمان" مجدداً وقال:

- هي لعبة ممتعة، بإمكانك أن تتخيل أي شيئ تريده معها، في الحديقة، في غرفة النوم، على القمر، في الغابة، في منزلك، في الجنة، في الجحيم، أي شيئ تريده سيتحقق لأنك أنت المسيطر فعلياً هنا، ما عليك سوى أن تتخيل المكان المطلوب وتُمدد جسدك ضمن هذه الحفرة وسترى نفسك في المكان الذي تريد.
- أريد أن نلتقي ضمن حديقة الجامعة كما كنا نلتقي سابقاً.
- لك هذا، انطلق.

اقترب "برهـان" بحذر وهو ينظر إلى عمق الحفرة حيث يشاهد "صوفيا" مازالت تغط في نوم عميق، ثم مدّ يده، فإذا بيده تصل إليها، ما إن شعر أنه يلامسها حتى انقلبت الحفرة انقلاباً كاملاً لتُسقطه بداخلها.

حين انقلبت الحفرة ومن شدة الدوران، أغمض "برهـان" بصيرته للحظة، ثم فتحها فوجد نفسه في حديقة الجامعة لوحده، وجميع المناظر والمشاهد التي حوله باللونين الأبيض والأسود.

ثم ظهرت "صوفيا" تسير بقوامها الممشوق الجميل باتجاه بناء مكتبة الجامعة، على الفور ركض نحوها وهو ينادي اسمها:

- صوفيا.. صوفيا..

التفتت على الفور إلى الخلف، فشاهدته، تأملته للحظة ثم ركضت باتجاهه.

حين وصلا إلى بعضهما البعض حضنته بقوة وهي تقول له:

- اشتقت لك.. اشتقت لك يا برهـان.. أنا أحبك..

وأخذت تقبله قُبلاً سريعة في كل مكان من وجهه، قبَّلت عينيه وفمه وخديه ورقبته.

أما هو فكان محتاراً بالتصرف الذي فعلته، فقال لها:

- لماذا تفعلين هذا، ألم تكوني قد رفضتِ الاستمرار في علاقتي معك، وقطعتِ كل روابط الاتصال فيما بيننا.

لم تأبه لكلامه كثيراً، بل استمرت تقبّله بشغف وهي تقول:

- رغماً عني.. رغماً عني.. أقسم لك رغماً عني.

تفاوتت مشاعر "برهـان" بين الفرح والحزن وهو يسمع هذا الكلام، ثم أمسكها من كتفها وشدها بعيداً عنه قليلاً وقال لها:

- صوفيا.. من أرغمك على ذلك؟.. اهدئي وأخبريني بالحقيقة؟؟.

نظرت إلى عينيه للحظة، استكانت قليلاً ثم قالت:

- أنت الذي أرغمتني على ذلك..
- أناااااا
- نعم أنت.
- وكيف؟؟

طأطأت رأسها إلى أسفل وقالت له بهدوء:

- تعال لنجلس في مكاننا المعتاد.

أمسكته من يده وسحبته نحو مقعد الحديقة الخالية من أي إنسان سواهما.

جلست على طرف المقعد وجلس هو ملاصقاً لها، ثم سألها:

- أخبريني الآن.. كيف أرغمتُك على أن تتركيني وتبتعدي عني وأنا الذي كنت أعشقكك حدَّ الجنون، وأنا من حافظت على علاقتنا لعدة سنوات؟

بدأت معالم الحزن تظهر عليها شيئاً فشيئاً.. كان حديثها أشبه باعتراف حقيقي لحالة نفسية مكبوتة بداخلها...

- برهـان، سأخبرك بالحقيقة، الحقيقة التي ربما تعرفها وربما لا تعرفها، ربما تؤمن بها وتتعايش معها، وربما تنكرها وتخفيها عن فكرك.

أحس من كلامها أنه أمام شيئ قد لا يود أن يسمعه، كان حلمه يضيق به إلى أعمق نقطة في جحيمه النفسي:

- تفضلي.. تكلمي.. أسمعك.
- حين سافرتَ إلى الكويت شعرتُ بفرحة كبيرة، هل تعرف لماذا؟
- نعم أعرف، لأنها بالنسبة لنا كانت فرصة لأبدأ فيها بتكوني حياتي المعيشية، وأكون مُستعداً لزواجنا على أكمل وجه.

ابتسمت ابتسامة صفراوية جامدة وأجابته بثقة:

- لا.. بل كانت فرصة لي كي أصارحك أن ننهي علاقتنا التي دامت لسنوات، في الحقيقة لم استطع مواجهتك بهذه الحقيقة قبل سفرك، انتظرتك لتسافر، وتستقر في عملك هناك، وبعدها كنتُ سأخبرك بضرورة أن ننهي رابط الحب فيما بيننا.
- صوفيا!!!.. ما هذا الكلام.. أنا لا أصدق ذلك..
- بلى.. صدق.. لكن حين عدتَ سريعاً، كنتُ مضطرة لمواجهتك بالحقيقة وجهاً لوجه.

تأمل "برهـان" عينيها الجميلتين الواسعتين للحظة، ثم قال لها بسخرية:

- حقاً!! ولماذا كل هذا اللف والدوران؟ أنتِ إنسانة بلا مشاعر، ولا تعرفين معنى الحب، إنكِ تبحثين عمن يمتلك المال! أليس كذلك؟.. اعترفي؟.

ضحكت بسخرية وأجابته على الفور:

- ربما.. لكن حين أخبرتُ عائلتي عن قصة حبنا، وأنك تنوي التقدم لخطبتي، ذهب والدي يسأل عنك وعن عائلتك، وتأكدنا من الحقيقة التي كنتَ تخفيها عني..
- أي حقيقة؟؟
- حقيقة والدك ووالدتك!!
- ماذا تقولين.. إذا كنتِ تقصدين الانفصال الذي جرى بينهما فهذه أمور شخصية، ثم إن انفصالهما حدث قبل خمسة عشر عاماً، أصلاً ما دخل علاقتنا بهذه المشكلة التي قد تحدث مع أي زوجين؟.

طأطأت رأسها صامتة للحظة، ثم رفعته وقالت له:

- هل تعرف لماذا انفصلا؟؟

نظر إليها نظرة تعجب وقال:

- ما هذا السؤال الغريب، لم يكونا على وفاق.
- برهـان أرجوك كفى.. إما أنك تعرف وتتجاهل، أو أنك لا تعرف، في كلا الحالتين لا يهم، ما يهمني حقيقة هو أنني أحببتك كثيراً، لكن ما قيل لنا وما عرفناه جعل عائلتي تقف بوجهي رفضاً لاستمرار هذه

العلاقة، ووصلتُ إلى قناعة معهم أن على الإنسان أحياناً أن يضحي بحبه كي يبقيه خالداً بقلبه، ولا أريد أن أتألم أكثر من هذا.. أرجوك كفى.

شعر برهـان بأفكار متناقضة تتصارع في ذاكرته، فما يعرفه عن والده حسب رواية أمه أنه قرر ترك أسرتهم من أجل امرأة أخرى، لكن بحسب كلام "صوفيا" الآن فالأمر يبدو أكبر من ذلك.

وقفت "صوفيا" وقررت الذهاب، فوقف قبالتها وقال لها:

- هل أنتِ سعيدة بحبك الجديد؟

ابتسمت بسخرية وقالت له:

- أتقصد آدم.. ألم تعرف أنه مات بحادث سيارة؟.

جحظت بصيرته بشكل كبير، شعر وكأن حلمه عاد وضاق به إلى أعمق نقطة بداخله:

- كيف هذا؟.. أعرف أن آدم توفي بحادث سيارة، لكن ما لا أعرفه أنه كان خطيبك؟!!
- أيعقل أنك لا تعرف!!، قبل وفاته بشهرين تقريباً جاء والده إلينا بناءً على رغبته، وخطبني بشكل رسمي، ثم تحدثنا على الهاتف عدة مرات، واتفقنا على كل التفاصيل.

كان الاستغراب بادياً على "برهـان" بصورة غريبة:

- لكن... آدم صديق طفولتي.. صديقي المفضل.. ويعرف بالعلاقة التي بيننا، كيف فعل هذا؟.

- أرجوك سامحني، هذا ما حصل، قبل سفره كان إعجابه بي واضحاً، وفي الحقيقة تحدثنا مع بعضنا البعض عدة مرات بالهاتف، كنت أفعل ذلك بدافع الفضول والتسلية، لكن حين أخبرني في الفترة الأخيرة عن مشكلة عائلتكم، بدأت أضعف تجاه رغبتي الحقيقية به، هو شاب وسيم، ويعمل، ووعدني بالسفر إليه بعد عقد القران فوراً، كما أنه اشترى شقة كبيرة في أجمل شوارع المدينة، وتعهد أن يجعلها ملكاً لي بعد الزواج.

كان "برهـان" يشعر باختناق واضح وضيقّ في روحه، شعر وكأن شيئاً قوياً بدأ يقيده، لكنه حاول التصدي لهذا القيد، فنظر إلى "صوفيا" نظرة حادة وقال لها بصوت يغص ببكاء مخنوق:

- بقي شيئ واحد، يجب أن أقدمه لك.
- ما هو؟

قبل أن تكمل كلمتها الأخيرة، رفع يده وبكل قوة صفعها صفعة سريعة على وجهها.

صفعته القوية تلك كانت كالكابوس على "صوفيا" المُلتحفة في سريرها...

استيقظتْ فجأة من النوم مرتعبةً من الحلم الغريب الذي حلمتْ به، كانت تتنفس بسرعة كبيرة كأنها كادت تغرق في مياه عميقة.

أمسكتْ كوب الماء الذي بجانبها ورشفت منه رشفةً، ثم أخذتْ تُبسمل وتقرأ المعوذات من شدة الرعب الذي شاهدته في كابوس غريب اعترفت فيه لبرهـان بكل ما كانت تُخفيه عنه.

كان "سـيمان" ما يزال واقفاً عند فوهة الحفرة التي تُطل على غرفة "صوفيا" الحقيقية، يراقبها، حين استيقظت من النوم مرتعبة وفزعة تلاشى على الفور الضوء القادم من غرفتها وأُغلقت فوهة الحفرة تلقائياً.

عرف "سـيمان" أن الحلم في عقل "صوفيا" الباطن قد انتهى للتو، وأن برهـان سيظهر الآن، وبالفعل ظهر أمامه على الفور.

ابتسم "سـيمان وقال:

- لقد عدتَ سريعاً، هل أعجبتك اللعبة.

لكن برهـان هجم عليه، أمسكه من عنقه بقوة وصرخ في وجهه:

- سـيمان أخبرني هل ما يحدث في هذا العالم الغامض السخيف حقيقة أم وهماً وخيال مفتعل؟.

أزاح قبضة "برهـان" عن عنقه، وقال له بكل هدوء:

- اهدأ يا صديقي.. اهدأ أرجوك، عالمنا هذا ليس سخيفاً أو وهماً، إنه عالم الحقيقة الواضحة، فكل ما يُقال هنا صحيح، على عكس عالمنا الخارجي الذي نظن أنه مثالي، فذاك هو عالم إخفاء المشاعر، عالم الكذب والاحتيال، عالم يتدرب فيه رجال البوليس على قراءة لغة جسد الآخرين ليكشفوا ما يخفونه عنهم، عالم يكتنفه الغموض والخداع، أزواج يخدعون زوجاتهم، وكبار يكذبون على الصغار، وحُكام يتلاعبون بمشاعر شعوبهم، شيوخ يحتالون باسم الرّب والدين، حروب كاذبة، مشاعر خداعة، لا شيئ هناك حقيقي.

أما عالمنا هذا فهو العالم الصادق والصريح، هنا لا أحد يكذب، هنا لن ترى سوى الصور الحقيقية لقلوب وعقول وأفكار الآخرين، هنا تكمن الحقيقة، الحقيقة التي لا يستطع أحد إنكارها.

تراجع "برهـان" إلى الخلف وقد بدأ يشعر بالانهزام:

- إنها فتاة حقيرة، وآدم شخص انتهازي ورخيص.
- يبدو أنك رأيت بعضاً من الحقيقة؟

بشكل أقرب إلى الانهيار أخذ "برهـان" يبكي وهو يتكلم كأنه طفل أضاع بيته:

- أنا.. أنا.. الذي كنت أظن أن "صوفيا" إنسانة مثالية ورائعة، اكتشف الآن أنها كانت تتلاعب بمشاعري، وبحبي، وأنا الذي كنت أظن أن "آدم" صديق طفولتي ورفيقي وحبيبي اكتشفُ أنه عشيق حبيبتي، وأنا.. أنا.. الذي عرّفتهُ عليها، وقدمتها له على أنها حبيبتي وزوجتي المستقبلية، وقدمته لها على أنه بمثابة أخي، وصديقي ومستودع أسراري، هل تتخيل هذا؟ الآن أكتشف أنهما خائنان، الآن أكتشف أنه طلب يدها للزواج، وتحدث لها عن عائلتي بالسوء..

اقترب "سـيمان" منه، أمسكه من كتفيه وضمه بقوة إلى صدره، هنا انفجر "برهـان" بالبكاء الشديد، بكاء ألقى عبره أحمالاً ثقيلة كانت تجثم على قلبه.

* * * * *

**لا يوجد وهم يبدو كأنه حقيقة مثل الحب..**

**ولا حقيقة نتعامل معها وكأنها الوهم مثل الموت..**

**د: مصطفى محمود**

*****

إنها عقدة الحقيقة المطلقة أو الحقيقة الواحدة، حقيقة تحتل مركز الصدارة في حياتنا الروحية، فالناس على هذه الأرض خُلِقوا وفيهم شعلة الكذب والخداع، شعلة الاحتيال والأنانية، وبهذه الصفات مازالوا يسيطرون..

لقد روضوا الحيوانات بالاحتيال والخداع، وأنهكوا النبات بالأنانية، وتباينوا في القوة والتطور فيما بينهم بالكذب...

لقد تم خداعي من "صوفيا" و"آدم" معاً، لا أنكر أنني أحببتها درجة الجنون، رغم قوتي الظاهرة الكاذبة وادعائي بأني لا أبالي حبها، ولا أنكر أنها سلبت مني كل مشاعر العطف والحنان، وتركتني كتلة جامدة لا رغبة لي بسواها.

ولا أنكر أنني بكيت بصدق حتى تجرّح قلبي حين عرفت أن "آدم" توفي، لا أنسى تلك المشاعر التي اجتاحتني حين وصل جثمانه إلى منزله، لا أنسى كيف أشعلتْ صورته حين وضعناه في قبره الحزن والآلم في قلبي.

الآن عرفت حقيقةً مّرة ستطبع في ذاكرتي أقسى المشاهد التي يصعُب عليّ نسيانها.

لكن أكثر ما بات يقلقني هو كلامها عن عائلتي، فهناك سرّ ما حصل بين أبي وأمي لا أعرفه..

نظرتُ إلى "سـيمان" الذي وقف منتظراً كلامي:

- أريد زيارة شخص آخر، والآن؟

حرك رأسه بالموافقة وقال:

- أنا جاهز، ولكن أخشى أن تُصاب بخيبة آمل جديدة، ما رأيك أن نتسلى بأحلام الآخرين بدل أن نتوه في كشف حقائق تُدمينا، حقائق عنا تؤلمنا إذا ما عرفناها؟

- لا.. زيارتي التالية مهمة جداً وضرورية.
- صدقني يا "برهـان" ستندم وستشعر بالخذلان والضعف أكثر، أنا فعلتُ ما تفعله أنت الآن فكشفت حقيقة أصدقائي وحقيقة زوجتي، وحقيقة أطفالي، وحقيقة أقربائي، عرفتُ أموراً تمنيت لو لم أعرفها.

شعرتُ أن كلامه صحيح، لكن هذه الزيارة تعتبر الأكثر أهمية، زيارة لمعرفة أمور كان عليّ معرفتها منذ زمن..

- "سـيمان" أرجوك لا تُكثر من الكلام، دعنا ننطلق إلى أمي، أريد أن ألجَ في حلمها، كثيرة هي الأمور التي عليّ معرفتها منها.
- كما تريد يا صديقي، اتبعني الآن إلى ذلك الضوء، حيث سنجدُ أمكَ تغط في نوم عميق.

*****

كثير من الناس لا يعرفون طرق التعامل مع روحانيتهم، فنجدهم عاطفيين في تفكيرهم، لا يعرفون كيفية تحقيق التوازن بين قلوبهم وعقولهم، فالروح ملجأ القلب الذي يعاني، والعقل ملجأ الواقع الذي يفكر، ودائماً نتوه بين معرفة ما نجهله وحب ما نحتاجه، فيزداد الألم في أرواحنا..

وصل "برهـان" و"سـيمان" إلى ضوء يشع من فوهة حفرة جديدة، وقف الاثنان قبالة بعضهما البعض، ونظرا إلى أسفل الحفرة..

كانت أمه كعادتها تضع القرآن بجانب رأسها خوفاً من الكوابيس والأحلام وظلام الليل، ودائماً ما تغفو والسُبحة بين أصابعها.

إنها أمي، المرأة العصامية الغامضة، التي أمضت كل تلك السنوات تحافظ علينا من الضياع بعد أن تركها أبي بطريقة فجائية، ليس هذا فحسب

بل منعتنا من الاندماج أو الاختلاط مع أي غريب أو قريب سوى عائلتها خوفاً علينا من كلام الغرباء.

فكان بيت جدتي ملاذنا الوحيد والجميل، إنه بالنسبة لنا أرض الأحلام والمتعة، حيث اللعب والضحك وتناول الحلويات، والاستمتاع بالجريّ بين أشجار الطبيعة الخلابة.

نظر إليّ "سـيمان" نظرة غريبة وكأنه لا يريد مني الولوجَ إلى أحلامها، ثم قال:

- هل تعرفُ أين ستقابلها؟؟؟

في الحقيقة لم أكن أعرف أين سأقابلها وماذا سأسألها، لكن خطرت لي فكرة عن مكان هي كانت تحبه كثيراً، إنه في الغرفة التي كانت جدتي تنام فيها، ففي تلك الغرفة ولدت أمي، وبعد وفاة جدتي أصرت أمي على النوم في فراشها لتتذكرها وتشتم بقايا رائحتها العالقة على الفراش.

جثوتُ على الأرض قبالة الحفرة، ومددت يدي نحوها، وما إن لامستُ وجهها حتى انقلبت الحفرة سريعاً.

ما بين إغماضة بصيرتي وفتحها كنت جالساً على سرير جدتي في غرفتها الريفية الجميلة المطلة على أشجار الزيتون والرمان والتين وشجيرات الكرمة والليمون.

نظرتُ حولي، كانت أمي كعادتها سابقاً تفتح خزانة جدتي وتبدأ بترتيب ثيابها بعد تنظيفها وكيها وتعطيرها، والآن في حُلمها تفعل الشيء ذاته.

اقتربت منها قليلاً، وضعت يدي على كتفها فنظرتْ إلي خائفة، اقتربتُ من رأسها وقبلته، ثم قلتُ لها:

- أمي أريد أن نتحدث معاً.

وكعادتها ابتسمت تلك الابتسامة التي تشير فيها إلى أن ما تفعلهُ أكثر أهمية من أي حديث آخر، فقالت لي:

- ليس الآن.. ألا ترى أنني مشغولة.

أمسكتُ يدها ورفعتها باتجاهي، نظرتْ إلي باستغراب، كان الخوف يملأ نظرات عينيها بشكل لم أره في حياتي:

- حبيبي برهـان دعني أكمل عملي وسنتحدث لاحقاً.
- لا.. أريد التحدث معك والآن.

جلستْ على حافة السرير تنظرُ عبر النافذة وكأنها تتهرب مني، أما أنا فسحبتُ كرسياً خشبياً صغيراً وجلستُ قبالتها، نظرتُ إليها وقلتُ بإصرار:

- حدثيني عن أبي!!

حين لفظتُ كلمة "أبي" انتفضتْ فجأة وقالت:

- أبوك!!؟؟ ما به.. ماذا أُحدثكَ عنه؟.
- حديثني كل شيئ تعرفينه وأنا لا أعرفه.

ابتسمت ابتسامة صفراوية متصنعة وقالت:

- "برهـان" كفى.. ما هذا السؤال، أنت تعرف أباكَ، تذكرهُ بشكل جيد.

تمعنتُ الحزنَ فيها، وقلتُ مؤكداً ما أريده:

- أمي، أنتِ من علمنا أن نكون واضحين وصريحين، وأن لا نخاف من شيئ أبداً، بل دائماً ما كنتِ تقولين لنا، عدوكم الحقيقي هو خوفكم

الداخلي، وما أريده منكِ الآن هو أن تتغلبي على خوفك، أنا لم أعد صغيراً وعليّ أن أعرف ما تخفونه عني، قولي كل ما تعرفينه، وأنا أعلم أنكِ لن تكذبي عليّ.

حاولتْ على الفور تجاهل كلامي والنهوض من مكانها لتغادر، لكني وضعتُ يدي على كتفها وقلت لها:

- إما أن تتكلمي أو سأرحل من هنا إلى الأبد.

حين قرأتْ في كلامي الإصرار جلستْ وأعادتْ النظر عبر النافذة إلى الفضاء الواسع، أما أنا فلازمتُ مراقبةَ عينيها:

- ماذا تريد أن تعرف عن أبيك؟

- أريد أن أعرف كل شيء، أين هو الآن؟ ولماذا هجرنا وغادر؟.

تنهدت بعمق وقالت بحزن كبير:

- سأخبرك، لكن ما أريده منك هو أن تسامحني، هل تعدني بذلك؟.

تراجعتُ إلى الخلف قليلاً، شعرتُ ببعض الخوف من كلمتها "تسامحني"، فقلتُ لها على الفور:

- مهما يكن ستبقين أمي التي أحبها، والتي لن أنفرَ منها مهما حصل.

- والدك في سجن للأمراض العقلية!.

حين نطقت جملتها، عاد الضيق إلى جسدي، بدأ كل شيء من حولي يضيق باتجاهي، شعرتُ الآن أن هذا الحلم سيتحول إلى كابوس حقيقي كبير:

- ماذا قلتِ؟؟ سجن للأمراض العقلية؟؟ ألم تخبرينا أنه هجرنا مع امرأة أخرى؟؟!!

حركتْ رأسها بالإيجاب وأخذتْ الدموع تنهمر من عينها رغم أنها لا تبكي:

- إنها قصة طويلة يا برهـان، قصة بدأت منذ حملتُ بأخيك "بلال".

صمتتْ قليلاً.. وهنا اقتربتُ منها قائلاً:

- أسمعكِ.. احكِ لي كل شيئ وبالتفصيل.

كانت كلماتها القادمة أشبه بحممٍ بركانية تنطلق من فمها لتفتح في قلبي وعقلي وجسدي فجواتٍ من الألم لا تلتئم ما دمت حياً:

- حين تقدم والدك لخطبتي، كنت معجبة به حدّ الجنون، وهو كذلك، عرفت أنه مهندس ذكي وشاعر مرهف الحس، كلامه، وأحاديثه دافئة وكأنها شعر يلامس القلب بعفويته، وعرفتُ كذلك أنه وحيد ولا أقرباء له، رجل كما يُقال مقطوع من شجرة..

وبالفعل تزوجنا بشكل تقليدي، وأحببته كما أحبني، كان ذكاؤه مميزاً، ونظرته للأشياء لا تخيب..

لكن وبعد أن أنجبتُ أختك "سمر" بدأت بعض العوارض الغريبة تظهر عليه، عوارض أشبه بالحالة النفسية السيئة، إذ بات يقول إنه متأكد أنني أخونه بمشاعره، وأصبح متناقضاً، فأحياناً يضربني ويحاول طردي خارج المنزل، وأحياناً أخرى يجلس يقبل يدي ورأسي ويعتذر كي أسامحه، كنت حائرة في الحالة التي وصل إليها..

طلبتُ منه عدة مرات أن يراجع طبيباً نفسياً لعله يجد حلاً، لكنه كان يرفض وبشدة...

ومضت الأيام من صعب إلى أصعب، فصار يرى أن جارنا يراقبني، وفي إحدى المرات شاهد "أبو آدم" يقف على شرفته فشعر وكأنه يعاكسني، وعلى الفور صعد إليه وتشاجر معه، تضاربا بشكل جنوني وجاءت الشرطة حينها وسجنت كل منهما مدة يومين..

لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة لي، فقد كنت بين نارين، نار حبه من جهة، ونار تحرقني بتصرفاته وسلوكه وفراغه العاطفي الذي خلقهُ بداخلي من جهة ثانية...

استمرت حياتنا على هذا المنوال إلى أن حملتُ بأخيك "بلال"...

حين سمع بالخبر جُن جنونه فجأة، وصار يصرخ قائلاً إن هذا ليس ابنه، ولديه الدليل، وأنه ابن لعلاقة غير شرعية.

كان هذا الأمر بالنسبة لي صاعقاً حد الجنون، فمثل هذا الكلام إذا انتشر سيؤثر على اسم عائلتي في القرية، وسيؤثر على مستقبل أولادي لاحقاً...

عندها وعلى الفور حملتُ أغراضي وعدتُ إلى منزل أهلي وأخبرت جدتكَ بكل ما حصل..

فاقترحتْ على خالك أن يتم أخذه إلى مشفى الأمراض العقلية...

لكن المشكلة أن بمقدور والدك حينها أن يجلس مع الأطباء ويُقنعهم بأنه لا يعاني أي مرض عقلي، كان ذكياً بصورة غريبة، وهنا اضطر خالك لتزوير تقرير طبي يفيد بإصابته بمرض "اضطراب الهوية التفارقي" وهذا المرض معروف أنه يُعرّض الأشخاص المحيطين بالشخص المريض للخطر، خاصة وأن خالك أرفق شهادة "أبو

آدم" وتقرير الشرطة مُبيناً أنه حاول دخول بيته وقتله عن سبق إصرار..

وبالفعل جاء فريق طبي مع مجموعة من رجال الشرطة وتم أخذه عنوة إلى قسم الأمراض العقلية الخطرة.

مع مرور الأيام عرفنا وعرف الجميع أن هذا المرض وراثي، وحذرني بعض من حولي بأن عليّ أن أخفي عنكم هذه الحقيقة كي أحافظ على توازنكم النفسي في المجتمع، فحاولت قدر الإمكان عزلكم عن محيطكم، وأخفيتُ عنكم ما حصل كي لا يؤثر سلباً على مستقبلكم.

*****

"يعتبر (اضطراب الهوية التفارقي) Dissociative Identity Disorder أحد الأمراض الخطيرة، إذ أن أعراض هذا الاضطراب تظهر بداية بشعور المريض بتعدد الشخصيات، فيشعر أنه شخصين على الأقل، وغالباً ما يصاحب هذا الاضطراب حالة من صعوبات في تذكر الأحداث بشكل لا يمكن تفسيره، ويختلف هذا الاضطراب من شخص لآخر، فعادة ما يرافق صاحب اضطراب الهوية التفارقي اضطراب إيذاء النفس والشخصية الحدية واضطراب الوسواس القهري.

يرى بعض العلماء أن هذا الاضطراب سببه صدمة نفسية يتعرض لها المريض بصورة قوية تؤثر على تفكيره، وعادة ما يحدث هذا الاضطراب للأطفال أثناء الحروب، أو حالات اغتصاب الأطفال، أو مشاهدة أحد الزوجين لخيانة الآخر له بشكل صريح.

**التحالف الوطني للأمراض النفسية /الولايات المتحدة**

**National Alliance On Mental Illness NAMI**

*****

عاد "برهـان" إلى المكان الذي يقف فيه "سـيمان"، كان الحزن والقهر يُدميان تفكيره، أحس "سـيمان" بقسوة ما عرفه، وما عرفه ليس بالأمر السهل، فضمه إلى صدره ليُشعره ببعض الأمان، ثم قال له:

- عرفتُ أنك ستشعر بكل هذا الألم.

رفع "برهـان" رأسه والدموع تنهمر من عينيه دون بكاء وقال له:

- هذا ليس آلماً، بل هو الحقيقة المؤلمة.

- نعم معك حق إنه حقيقة مؤلمة، ما كان عليك أن تعرف.

نظر "برهـان" إلى فوهة الحفرة المُطلة على غرفة نوم أمه، كانت نائمة بعمق، ويبدو أن حلمها تغير.

وضع "سـيمان" يده على كتفه وقال له:

- هيا بنا، علينا العودة إلى فوهة غرفتك الأولى، يكفي كل هذا.

لكن "برهـان" حرك رأسه بالنفي مع ابتسامة صفراوية حزينة وقال له:

- لا... لن أعود قبل أن أُكمل ما جئت لأجله..

- ولكنك عرفت وسمعت كل شيئ، فأرجوك دعنا نعود.

أعاد "برهـان" نفس الحركة بالنفي:

- أريد زيارة حلم أبي، والآن.. أريد مجالسته والحديث معه.

حين سمع "سـيمان" بذلك انتفض خائفاً مرتعباً:

- برهـان أرجوك، لا يمكن هذا، إلى هنا تنتهي رحلتنا، دعنا نعود أدراجنا..

- قلت لك لا... لن أعود حتى أجالس والدي، لقد اشتقت له كثيراً، هل تعرف ما هي اللحظة الأجمل في حياتي والتي احتفظ بها دائماً داخل ذاكرتي عنه؟!
- ما هي؟؟
- في أحد الأيام كنت عائداً من المدرسة وأنا أبكي، فقد سقطتُ على وجهي في بركة من الوحل، دخلتُ إلى المنزل وكان يَهمّ بالخروج إلى العمل للتو وقد ارتدى أجمل ثيابه.. فما كان منه حين رآني إلا أن جثا على ركبتيه وضمني بقوة إلى صدره وقَبّل وجهي ماسحاً الوحل عني بقبلاته... حينها شعرت أن صدره هو الملاذ الأقوى في هذا العالم، وعرفت معنى أن لا يأبه بثيابه مقابل أن يمنحني هذه الطاقة القوية من ضمته تلك.. أذكر حينها أن جميع الأوجاع التي كنت أشعر بها اختفت فجأة.

حرك "سـيمان" رأسه بالموافقة:

- معك حق، لا يوجد أقوى من حضن الأب.
- هيا دعني ألجُ إلى حلم أبي.
- لكن يا برهـان هذا أمر خطير، فكما تعرف والدك يعاني من اضطراب نفسي، وهذا قد يؤثر عليك سلباً.
- ماذا تقصد؟ وكيف سيؤثر سلباً..
- لا أعلم، ولكن أحلام هؤلاء تكون عادة عبارة عن أشياء قد لا يستوعبها العقل الباطن الطبيعي.

نظر "برهـان" بحدة إلى "سـيمان" وقال له بعد فترة صمت قليلة:

- أريد الولوج إلى حلمه وليكن ما يكون.

تنهد "سـيمان" بعمق:

- كما تشاء، هيا بنا.

سار الاثنان عدة خطوات باتجاه بقعة ضوء جديدة خرجت من فوهة حفرة أخرى، وقف الاثنان فوقها ونظرا..

كان المنظر أشد ألماً مما توقعاه، رجل كبير في السن بذقنه الطويلة الشعثة وقد انتشر فيها الشيب بكثرة، جسم نحيل أقرب ما يكون للهيكل العظمي، سرير قديم مهترئ ضمن جناح واسع بارد...

كان أبوه مُتكئاً على حافة السرير، يضع الغطاء على جسده النحيل يرتجف من برودة المكان، وبين الحين والآخر يغط بغفوة قليلة ثم يستيقظ..

جثا "برهـان" على ركبتيه ثم مدّ جسده على الأرض، وأدخل يده في الحفرة باتجاه رأس والده، وقبل أن يلامس رأسه سمع "سـيمان" يقول له:

- انتبه لنفسك يا صديقي..

انقلبت الحفرة بشكل غريب هذه المرة، فقد دارت عدة دورات متتالية وسريعة، أما "برهـان" فقد أغمض بصيرته بقوة وشعر بدوار كبير، دوار سريع استمر لوقت طويل أشعره بالكثير من الضيق.

*****

"اضطراب الهوية التفارقي مرض قائم على الصدمة، يمتلك المصابون به شخصيتين على الأقل، وحالات شخصية مستقلة تمتلك كل منها أنماطاً ثابتة متعلقة بالبيئة ضمن هويتين أو شخصيتين تتحكم بتصرفات الشخص بشكل متكرر..

عندما نتساءل بداخلنا حول أمور نريد أن نفعلها كأن نقول: "ماذا سآكل على العشاء، ماذا سأرتدي اليوم؟" تعتبر هذه الأسئلة والتعليقات في عقولنا انعكاس لكيفية تفكيرنا، وهي أفكار طبيعية، لكن عندما تكون هذه التعليقات مسموعة داخلياً من أصوات أناس آخرين يعتبر هذا انفصام في الشخصية Schizophernia".

**راندون ويلتون**
**مدير الطب النفسي في**
**جامعة رايت ستيت**

*****

حين فتحت بصيرتي بعد كل ذلك الدوار، وجدت نفسي مازلت عند فوهة الحفرة، مستلقياً على ظهري، نظرت إلى أعلى كان الظلام الأسود يغطي كل المكان، نهضت من مكاني ونظرت حولي فلم أر شيئاً، بحثت عن "سـيمان" لم أجده كذلك، مشيت عدة خطوات إلى الأمام، وناديت:

- سيمااان.. سـيمان أين أنت؟

لم أسمع أي صوت سوى الفراغ، كنت في وسط المكان الذي جئت إليه، ولا معالم أو حفر أو أي دلالة، ليس سوى الفراغ، سرت للأمام وكأنني أمشي للخلف، شعرت ببعض الخوف، أعدت الالتفات حولي، لا شيئ سوى الظلام الخافت المخيف، قلت في نفسي: "ربما فشلتْ محاولتي في الولوج إلى حلم أبي، ولكن أين اختفى سـيمان، هل يعقل أنه غادر، ثم إذا غادر كيف سأعود أنا الآن؟".

قبل أن أكمل حديثي مع نفسي، شاهدتُ من بعيد خيالَ رجل عجوز قادم، لم تكن معالمه واضحة..

شيئاً فشيئاً بدأ يظهر لي أكثر، لقد عرفته من عينيه ونظرتهما الحنون، فمهما كَبُرَ الإنسان، ومهما تغيرت ملامحه تبقى العيون مفتاح وسرّ شخصياتنا، إنها تكشف خبايا نفوسنا وتبينها، وأجمل ما فيها أنها لا تتغير.

وقف أبي قبالتي وفتح ذراعيه، ودون أدنى تفكير اتجهتُ نحوه، ضممتهُ وضمني إلى صدره، كان صدره يمنحني القوة التي لطالما احتجتها:

- اشتقت لك يا بُني؟

جاء صوته غريباً وضعيفاً..

- وأنا اشتقت لك كثيراً يا أبي، دائماً كان ينتابني ذلك الشعور أنني سأقابلك يوماً ما مهما طال الغياب؟؟

ضحكَ ضحكة بسيطة ثم قال:

- لقد باتت قلوبنا مريضةً من العنف، وأرهقنا ذلك العراك الأبدي بين الخير والشر، بين المقدس والمدنس، بين نحن وهم، والأشد إرهاقاً من كل هذا أن كلاً منا يظن أنه على طريق الصواب والحقيقة.

قلت له وأنا أحرك جسدي مبتعداً عنه قليلاً ناظراً إلى عينيه:

- لم أفهم قصدك يا أبي؟؟
- لا عليك سيأتي يوم وتعرف حقيقة هذه الأحلام.

ابتسمت له:

- أبي لقد جئتُ إليك الآن وهنا كي أتحدث معك، فأمور كثيرة غامضة عني، أريد معرفتها.

ضحك ضحكة جميلة وعاد وضمني إلى صدره وهو يقول:

- لا يا بني أنت لم تأتِ إليّ؛ بل أنا من أحضركَ إلى هنا.

شعرتُ بصدمة غريبة من كلامه، فقلت له بعد أن ابتعدت عنه قليلاً:

- كيف ذلك يا أبي، كيف أنت من أحضرني؟؟ وأنا الذي فعلتُ كل ذلك بمخطوطات "سيمان" حتى استطعتُ أن ألجَ إلى حلمي الباطن بعقلي الواعي وأن أتمكن من التحدث معكم في أحلامكم بصدق واضح.

عاد وضحك من جديد وقال:

- ربما هذا ما كنت تظنه، لكن الحقيقة أن "المخطوطة" و"سيمان" كانا الطريقة التي من خلالها أدخلتك إلى حلمي كي أراك، فأنت الآن جزء من حلمي الكبير، والبقية جزء من حُلمكَ هنا...

شعرت بمتاهة من التفكير، هل يعقل أن والدي حقاً مُصاب باضطراب الهوية التفارقي؟ وهو ما مَكّنه من إيلاجي إلى حلمه، بعد أن أرسل إليّ سيمان، ثم قلت له بجرأة:

- أبي، هل حقاً أنت تعاني من مشكلة نفسية؟

ضحك باستخفاف بعد أن وضع يده على كتفي وقال:

- كثير من الأغبياء الذين لم يصلوا إلى معرفتنا يظنون أننا مرضى، فقط لأننا لا نُشببهم بالتفكير وبقدراتهم المحدودة.

لم أستطع تمييز مغزى كلامه بصيغة الجمع، هل يقصد بذلك أنا وهو، أم يقصد المرضى الآخرين الذين معه في مهجع الأمراض العقلية؟

ثم استرسل بالكلام وأنا أستمع له باستمتاع:

- هل تعلم يا برهان كم أنا مشتاق لك، كل يوم أستيقظُ فيه وأنا آمل أن أراك تزورني أو أن أسمعَ صوتك، وفي كل عام بتاريخ عيد ميلادك كنت أحتفل بك هنا لوحدي، أحتفل بأحلامي الواقعية التي لم تتحقق برؤيتك...

كل يوم كنت أشعر أنني بحاجتك أكثر، فأنت ابني الذي أعتز به، ابني الذي فتح في حياتي نافذةَ أملٍ كبيرة على هذه الدنيا، ابني الذي أرى فيه المتعة والحياة السعيدة، لكنني هنا أجد نفسي أمام شرخ كبير يفصلني عنك... والسنوات تمر وتمضي وأنت تكبر بعيداً عني، فما

كان مني إلا أن قررتُ تحقيق أحلامي في حلمك، وأن أجعلك تلجُ إلى حلمك لأراكَ وأضمكَ إلى صدري، ولتعرف الحقيقة التي أخفاها الجميع عنك، ومنعوك من زيارتي، ومنعوني من رؤيتك.

كان كلامه كابوساً جديداً يضاف إلى الكوابيس التي شاهدتها، دموعه المنهمرة من بصيرته كانت تتلألأ مصورة الألم الذي يعتصر قلبه، وصوته يخرج من حنجرته نقياً صافياً وكأننا في لحن سماوي هادئ وساكن:

- أنا أسف يا أبي، أرجوك سامحني، لم أكن أعلم أنك هنا، كنا نظن أنا وإخوتي أنك هجرتنا وسافرت مع امرأة أخرى.

عاد وضحك بسخرية من جديد وقال:

- لقد عرفتُ كل هذا الآن وهنا، وسمعت كل ما قالتهُ لك أمك وحبيبتك صوفيا، وفي الحقيقة فإن كل هذا قد حصل معكم بسببي.
- بسببك!!، كيف؟
- بني إياك أن تُحبّ حدّ الجنون، فكل حبّ نصل فيه حد الجنون هو الجنون بعينه، حين نتعلق بامرأة أو حبيبة حد الجنون نكون قد دخلنا رهان خسارة أنفسنا، حين نحبّ أولادنا حدّ الجنون ينفرون منا فنخسرهم ونخسر أنفسنا، حين نحب أوطاننا حد الجنون نخسر أنفسنا وربما أرواحنا لتدوم السلطة التي تدعي أنها الوطن، فأي حُبّ يصل بك إلى حدّ الجنون سيأخذ العقل والتفكير والروح، وهذا ما حدث معي، لقد أحببتُ أمك حدّ الجنون، كنت أغار عليها وأعشقها حدّ الجنون، كنت متعلقاً بها إلى حدّ الجنون، كنت أغار عليها وأعشقها، كنت متعلقاً بها، لكن حين اكتشفت خيانة

مشاعرها تجاهي تحول الحب إلى جنون حقيقي، جنون جعلني أخسر نفسي أولاً، وأخسر أولادي، وأخسر حريتي وحياتي.

تعجبتُ من كلامه، فكيف حصل هذا التناقض؟ أمي لم تكذب في حُلمها، وأبي لم يكذب في حُلمه، هو يظن أنها خانته بمشاعره، وهي تظن أن إحساسه ذلك كان مرضاً نفسياً:

- أبي لكن أمي لم تخنك، ولم تكن كاذبة في حلمها، أليست الأحلام صادقة؟
- نعم يا بني الأحلام صادقة لا كَذبَ فيها، هي لم تكذب بل قالت الحقيقة، قالتها بطريقة لم تنفِ ذلك بكلامها ولم تؤكده، قالتها بأسلوبها الجميل كما العادة.

ما إن أكمل جملته حتى بدأ يترنح وكأنه سيسقط أرضاً، على الفور أمسكته وأسندته إلى كتفي وصدري:

- أبي.. أنت مُتعب، يجب أن ترتاح؟؟؟
- أنا بخير، بخير.. الآن عليك العودة.
- أبي أريد أن أعرف أموراً أخرى..!!
- قلّ كل ما تريد قوله:
- أبي ما تفسير هذه الأحلام؟ وهل سأتمكن من العودة وتغيير الواقع؟

ابتسم بلطف، ثم قال بهدوء:

- برهـان، بإمكان البشر استخدام قدراتهم العقلية بصورة أكثر مما اعتادوا عليها، فقدرات عقلنا الباطن كبيرة بالصورة التي جعلتنا نفعل ما فعلناه على هذه الأرض، كل شخص منا بإمكانه التحكم

بقدراته، وعندها سيتحكم بقوة جسده العضلية والنفسية بل سيتحكم بكل خلية من خلايا جسده، يجعلها مطيعة له، لكن السرّ الحقيقي يكمن في عقله فإذا ما عرفت كيف تتحكم به ستغير الكثير من الأمور، المصريون والهنود القدامى وشعوب كثيرة تمكن بعض أفرادها من تغيير القواعد والقوانين فوصلوا إلى كل تلك التطورات العظيمة...

بني نحن البشر بإمكاننا التواصل فيما بيننا بالأفكار التي تخرج من عقولنا، فلدينا شبكة ضخمة من المعلومات، وكفاءة عقلنا البشري تجعل أي حاجز أو عقبة تسقط وتنهار من أمامنا، واليوم أنا فعلت الأمر ذاته معك، لقد أرشدتك إلى معرفة كبيرة، ووصولك إلى هنا كان ورقة الإنقاذ النفسية لك، أما الآن أرجوك عدّ إلى غرفتك وحياتك، فغداً أمامك أشياء كثيرة لتفعلها.

- لا أريد الذهاب.. أريد البقاء معك... لدي الكثير من الأسئلة أحتاج معرفة إجاباتها..
- بني.. أرجوك. انظر إلى ذلك الضوء هناك.. اذهب لتلجَ فيه قبل فوات الأوان..
- لن أذهب.. أريد البقاء معك.. والإطمئنان عن صحتك.

أبعد نفسه عني، وعاد ليقف مجدداً، ثم وضع يده على كتفي وقال بإصرار:

- أنا بخير، اذهب يا برهـان الآن، اذهب فأمامك الكثير من الأمور التي عليك أن تفعلها.
- أبي.. هل نحن نائمون؟

نظر إلى عينيّ، ثم اقترب مني أكثر وقال بصوت خافت:

- نحن جميعاً نعيش في دائرة الحلم، حلم اسمه الحياة، وستستيقظ من هذا الحلم حين تولد بالموت، حينها فقط ستدرك أن حياتك لم تكن سوى حلماً سريعاً من مسار طاقتك الأبدية.
- وكيف نولد بالموت؟
- نحن دائماً ما نولد بالموت، فالموت ليس سوى مخاض الولادة الحقيقي.

تراجعت بخطوات بطيئة إلى الخلف وأنا أنظر إليه، أما هو فوقف يحرك يده للوداع، ابتسمت له ابتسامة دافئة وقلت بصوت عالٍ:

- أبي سآتي لزيارتك غداً في المشفى، انتظرني، حين تستيقظ ستجدني عندك.

ابتسم لكلامي ابتسامة دافئة حنون، وقال بصوت مبحوح خافت:

- لا أظن ذلك يا بني.

تراجعت إلى الخلف خطوة، فلم أشعر إلا وقد سقطت داخل الضوء المنبعث من الحفرة، كانت حفرة واسعة وممتدة بشكل طولاني كبير، ثم أخذ جسدي يلتف ويدور، يدور بسرعة كبيرة، دوار، ودوار... وفجأة ظهر ذلك الصوت المُزعج بصداه وزعيقه وأزيزه وهديره الذي يشبه صوت محرك الطائرة وهي تُقلع..

أحسستُ بالصوت يقترب أكثر وأكثر من أذني حتى دخل إلى رأسي وانفجر داخله، شعرت وكأنني أسقط في فضاء واسع بين النجوم..

ثم انتفضتُ صارخاً على سرير غريب، شعرتُ بِغَبشٍ بين الأبيض والأسود يغطي عينيّ، حاولت تحريك جسدي عن السرير، لكن بصعوبة تمكنت من رفع رأسي..

حين تحركتُ شاهدتُ أشخاصاً يرتدون زياً أبيض قادمين باتجاهي..

أصواتهم كانت متداخلة بين من يقول: "لقد استيقظ من غيبوبته" ومن يقول: "لقد عاد لوعيه"..

نظرت حولي، أدركت أنني داخل غرفة العناية المشددة في أحد المشافي غريبة الشكل.

*****

## ASTRAL PROJECTION
## الإسقاط النجمي، أو الإسقاط الأثيري

"هو تفسير افتراضي لحالة خروج الشخص من الجسد والسفر عبر الجسم الأثيري لأي مكان يريده، ثم العودة إلى جسده من جديد، ويُصنف الإسقاط النجمي كأحد أشكال الأحلام الجلية والتأمل، وهو موجود منذ القدم في العديد من الديانات حول العالم.

أدرج بعض علماء النفس هذا الإسقاط من بين حالات الأحلام الواعية Lucid Dreaming كونه يُصنف ضمن حالات انفصال شخصية الجسم الأثيري "الروح" عن الجسد وعيشها لفترة من الزمن ضمن محيط الحلم أو ما يسمى بالعالم الأثيري..

وقد لوحظت مثل هذه الحالات لدى بعض الأشخاص الذين تعرضوا لحادث سيارة، أو عملية جراحية، أو أزمة قلبية، أو الولادة.

والخارجون من الجسد OBE يكونون واعين بما يحدث في العالم الحقيقي، وذلك بسبب انتقال كمية

كبيرة من المادة الأثيرية أو مركز الطاقة النشطة إلى أجسادهم.

قد يمتلك بعض الأشخاص هذه الطاقة بتطويرها والتدريب عليها ضمن مراكز الطاقة الفيزيائية للجسد، أو قد تأتي هذه الطاقة بشكل وراثي من الآباء والأجداد.

والإسقاط في العالم المادي لا يكون ضمن العالم الحقيقي، وإنما في المنطقة الفاصلة بين العالم المادي والعالم النجمي.

وتختلف الأشياء في العالم النجمي عن العالم الحقيقي، خاصة في الوقت والزمن الذي قد يمتد ما بين أقل من ثانية إلى عشرات السنين.

كما بينت جامعة "هيلزديل" طريقة ما أسمته بـ(الطرح النجمي)، بأنه قيام الجسد الأثيري أو جسد الطاقة أثناء النوم بجمع الطاقة حوله بشكل منتظم، فينفتح ويتمدد ثم ينفصل ويذهب إلى البعد النجمي للجسد، حيث يستطيع هناك تكوين الأحلام ونقلها إلى الجسد المادي، وإذا تم فعل هذا

الانفصال أثناء الوعي يكون للشخص القدرة في السيطرة على أحلامه وأن يعيش فيها وكأنها عالم حقيقي يمتلكه".

**عن مجلة CORTEX عدد**
**شهر يوليو /٢٠١١/**
**المملكة المتحدة**

*****

# الفصل الثالث

**العام: ٢٠٥٠.**
**التاريخ: ٠١ أبريل/ نيسان.**
**الزمن: ١٤:٣٠**

شعرت بألم شديد في رأسي، وثقل كبير في جسدي، كأن وزني يفوق المئتي كيلوغرام، تنفسي ضعيف، ودقات قلبي واهية خفيفة.

هل يعقل أن سفري إلى الحلم الواعي قد أصابني بإرهاق ما؟

أم أنني نمت عدة أيام دون طعام وشراب، وهذا ما جعل أمي تنقلني إلى هذا المشفى.

أغمضت عيني وأنا أستمع لهمهمات الأطباء وهم يتكلمون فوق رأسي، كان الأزيز والطنين مازالا عالقين في رأسي وأذني.

أمسك الطبيب يدي وبدأ يضع عليها قِطعاً حديدية باردة وصغيرة، ثم يثبتها باللاصق الطبي، وضع العديد منها، ثم خرج هو والفريق الذي معه.

كان شعوري بالوهن والتعب غريباً بصورة لم أشعر بها من قبل، حين خرج الجميع وأغلقوا الباب وراءهم شعرت أن الضوء في الغرفة قد تبدل بصورة جميلة ومريحة وكأن الإضاءة هنا متطورة وتساعدني على الرؤية بشكل مُريح.

بالفعل قمت بفتح عيني ببطء شديد فاختلفت الإضاءة بصورة سريعة وجديدة وبشكل يناسب نظري..

كان المشفى نظيفاً ومتطوراً بشكل لا يصدق، أما جدرانه فعبارة عن ألواح زجاجية شفافة لامعة يظهر خلفها سائل ملون، حركة السائل منحتني الكثير من الراحة النفسية.

تأملتُ السائل أكثر، شعرت وكأن صوتَ موسيقى ناعمة ترافق حركة السائل على الجدران، حاولت تركيز بصري مع السائل وسمعي مع الموسيقى، فتدفق إلى داخلي شعور عظيم وهادئ جعل صوت الهدير والأزيز يختفي نهائياً..

رفعت رأسي ونظرت بشكل أدق إلى انعكاس وجهي على حائط الزجاج، فبدا وكأنني شخص آخر، كان شعري شَعِثاً وذقني طويلة ووجهي شاحباً وغير واضح.

عدتُ فأسندت رأسي إلى السرير من جديد، وتساءلت في نفسي: "ربما مرّ علي أكثر من عشرة أيام وأنا غائب عن الوعي في هذا المشفى، ومن المؤكد أن ولوجي إلى الحلم أفقدني الوعي، أو أن حلمي ذاك استمر لعدة أيام، فالزمن والوقت بين عالم الواقع وعالم الأحلام الأثيري مفقود، واللحظات بينهما لا تقاس بالزمن".

فجأة فُتح الباب ودخلت فتاة جميلة بشكل مهذب، لم تكن ترتدي زي الأطباء، كان جسدها طويلاً ونحيفاً وعيناها جميلتان جداً وواسعتان، عينان تشبهان إلى حد كبير عيون "صوفيا"، حتى لون بشرتها يشبه لون بشرتها، لكنها ليست "صوفيا"، وتبدو أصغر منها عمراً، فعمر هذه الفتاة لا يتجاوز العشرين عاماً، أو هكذا بدا لي.

جلستْ بجانبي بكل هدوء وأمسكت يدي، شعرت بنعومة يديها الرقيقتين بشكل لم أشعر فيه برقة لمثلهما، ثم انحنت إلى وجهي وقبلتني على جبهتي، ووضعت رأسها على صدري وكأنها تريد سماع دقات قلبي.

بالفعل ازدادت دقات قلبي أكثر وأكثر، وأنا أتساءل في نفسي، من هذه الفتاة الرائعة التي قبلتني؟؟

تنفست بعمق أكثر، وتنحنحت لأبعدها عن صدري وأكلمها..

على الفور وضعت يدها الناعمة على فمي طالبة مني السكوت، وقالت بصوت ملائكي ناعم رقيق، وكلمات ثقيلة قاتلة مرعبة:

- حمداً لله على سلامتك يا أبي.. لا تُتعب نفسك بالكلام، أرجوك استرح الآن.

*****

إذا استطعت الاقتراب من الأثير أو الثقب الأسود أو حتى الوصول إلى مداره لمدة ساعتين فقط، سوف تمر على الأرض خمسون سنة تقريباً، وأنت سوف تمر على عمرك ساعتين فقط.

**ألبرت أينشتاين**
**عالم فيزياء، حائز على جائزة نوبل.**

* * * * *

شعر "برهـان" بذهول وخوف وارتباك أدخله في حيرة كادت أن تصل به إلى الجنون الحقيقي حين سمع كلمات هذه الفتاة وهي تقول له "يا أبي".

على الفور انتفض رغماً عن حركة جسده الثقيلة وعظامه المتعبة ليقول لها بهلع:

- من أنتِ؟

أمسكت يده، رفعتها إلى فمها وقبلتها، عادت المفاجأة لتزيد من حيرته بصورة مرعبة لم يتحملها حين شاهد أنسجة جلد يده مترهلة ومتجعدة وذات لون غامق أشبه بأيدي كبار السن..

سحب يده بسرعة وراح يتأملها، إنها يده التي يعرفها، نفس شكل الأظافر والأصابع، ولكنها يد عجوز يقارب عمره السبعين عاماً، نظر إليها وقال بخوف وارتباك:

- من أنتِ؟؟ أين أنا؟؟

من جديد أمسكتْ يده وضمتها إلى صدرها الصغير، وقالت له بكل هدوء:

- أنا ابنتك "شمس"، ألم تعرفني؟ لكن لا تقلق، نحن في المشفى، لقد تعرضت ليلة أمس لحادث سقوط في المنزل وأنت تحاول إصلاح سقف الغرفة، كانت الضربة قوية على رأسك وأفقدتك الوعي، فجئنا بك إلى المشفى على الفور، وهنا أخبرني الأطباء أن حالتك عرضية وستتذكر كل شيئ بعد قليل.

تراجع "برهـان" إلى الخلف، وقد أُصيب بحالة ذهول غريبة، متسائلاً في نفسه كيف حدث هذا؟

لقد كان في ليلة أمس مستلقياً على سريره، ثم نام ليلجَ عالم الأحلام الواعية، وبعد رحلته القصيرة تلك وبعد أن التقى بصوفيا وأمه وأبيه في حلمه، عاد ليجد نفسه رجلاً عجوزاً في مشفى غريب مع فتاة تدعي أنها ابنته، كيف حدث هذا؟!.

نظر إليها من جديد وقد بدت عليه أمارات الخوف والهلع وقال لها راجفاً:

- أرجوكِ أخبريني الحقيقة، من أنا ومن أنتِ وأين نحن الآن؟

وضعتْ يدها على خده ومسدت شعر ذقنه بلطف ثم قالت له بكل هدوء:

- أرجوك يا أبي، ارتح الآن، أخبرني الأطباء أنك على ما يرام، ولكنك فاقد لذاكرتك بعض الشيئ بسبب شدة حادثة الوقوع، وستعود إليك الذاكرة قريباً.

حين سمع كلامها الغريب هذا شعر كأنه جاء إلى زمن غير زمنه، فأخذ يصرخ متوتراً وخائفاً:

- ماذا تقولين؟؟ أي ذاكرة، وأي حادث وقوع؟ أنا بخير وأتذكر كل شيئ حصل معي إلبارحة...
- لقد كنتُ في منزلي لعبتُ مع أخي "بلال" بعد أن شاهدتُ مسلسل السهرة مع أمي وأختي "سمر"..
- ثم دخلت غرفتي لأنام..
- أين الطبيب؟؟ أريد التحدث مع الطبيب؟ أريد التحدث مع الجميع؟ ماذا يحصل معي الآن؟؟

على الفور شعرت "شمس" أن حالة هيجان والدها "برهـان" تستدعي بالفعل إحضار الطبيب، فانتفضت من مكانها خائفة، خاصة بعد أن سمعت منه ذاك الكلام الغريب.

خرجتْ مسرعة باتجاه الباب الزجاجي الذي فُتح من تلقاء نفسه بعد أن أومض بضوء أحمر باتجاهها وكأنه يقوم بعملية تعقيم دائمة وفحص الزوار الداخلين والخارجين إلى هذه الغرفة.

*****

لقد علوت حتى أصبحت أتطلع إلى ما تحت أقدامي...

فمن يحوم فوق أعالي الجبال...

يستهزئ بجميع مآسي الحياة..

ويستهزئ بمسارحها...

بل بالحياة نفسها.

**فريدريك نيتشه**

**كتاب هكذا تكلم زرادشت.**

*****

لم أصدق ما حدث لي، كيف حدث ذلك؟

أنا الآن رجل عجوز، أيعقل أنني بالفعل لا أذكر شيئاً بعد ذلك اليوم من عام ألفين وستة، أم أن هناك سراً آخر عليّ إيجاد حله..

دخل الطبيب المختص ذو الهيئة الأنيقة غرفة العناية، وقف أمامي، وعلى الفور أخرج من جيبه جهازاً أبيض صغيراً، وبدأ يحركه حول رأسي تارة ويسلطه على عينيّ تارة أخرى، ثم قرّب كرسياً وجلس عليه قبالتي مبتسماً بأسنانه ناصعة البياض..

أما تلك الفتاة التي تدعي أنها ابنتي واسمها "شمس"، فقد دخلت وراءه ووقفت خلفه وعلامات التوتر مازالت ظاهرة على محياها..

أمسك الطبيب يدي وقال لي بكل هدوء:

- بماذا تشعر؟

شعرت من هيئته وكلامه وكأنه لا يمت لسكان هذا الكوكب بصلة:

- أنا لا أشعر بشيئ.. ولكن حدث معي شيئ غريب بين ليلة أمس واليوم.

حرك رأسه بالموافقة وقال:

- قل.. ماذا حدث معك..

حاولت التزحزح من سريري لأجلس بشكل منتظم قبالته، لكنني لم استطع، على الفور ضغط على أحد الأزرار الجانبية فتحرك السرير بشكل آلي ليضعني بكل خفة وأريحية بالصورة المناسبة للجلوس، حينها شعرت بألم طفيف أسفل ظهري، لكنني لم آبه لذلك:

- دكتور أنا اسمي "برهـان" عمري يقارب أربعة وعشرين عاماً، كنت ليلة أمس بالضبط في منزلنا، مع أمي وأختي وأخي الصغير، وقبل منتصف الليل اتجهت إلى سريري ونمت فيه، وأظن أنني قد حلمت أحلاماً حية أو أحلاماً حقيقية، حيث قابلت أمي وتحدثت معها، وكذلك صوفيا وأبي، ثم أذكر أنني سقطت في الحلم ضمن حفرة كبيرة لاستيقظ هاهنا، بعد ذلك جاءت هذه الفتاة وقالت لي إنها ابنتي، ثم شاهدتُ صورتي وبشرة يدي لأشعر وكأنني رجل طاعن في السن.

ابتسم الطبيب قليلاً، ثم أخرج ورقة طبية وسجل عليها بعض الملاحظات وعاد لينظر إليّ مبتسماً وهو يقول:

- إذاً أنت لا تذكر ابنتك "شمس" هذه، ولا تذكر شيئاً أخر سوى أنك نمت في منزلكم القديم واستيقظت هنا؟
- نعم دكتور، كنت في بيتنا، وكان التاريخ بالضبط، العشرون من شهر تشرين الثاني نوفمبر، عام ألفين وستة.

حرك الطبيب رأسه باستغراب وتعجب وقال:

- ألفين وستة!!!
- نعم دكتور ألفين وستة.
- إذاً أنت لا تذكر الآن ابنتك شمس أو ابنك آدم، أو أي شيئ بعد هذا التاريخ..

كانت مفاجأة جديدة:

- ابني آدم، هل عندي ابن أيضاً..

حرك الطبيب رأسه بحيرة، ثم أخرج من جيبه جهازاً صغيراً يشبه جهاز الريموت كنترول، وضغط عليه باتجاه المكان الفارغ أمامي، فظهرت شاشة شفافة اللون وظهرت بداخلها تموجات لونية والعديد من الأشكال التي تُشبه نباتات غريبة، لكن ما لفت انتباهي على الفور هو شكل النباتات التي كانت تُشبه الأشكال النباتية التي كانت مرسومة في مخطوطات "سـيمان"، ثم نظر الطبيب إليّ للحظة وقال:

- أرجو من حضرتك أن تتمعن بهذه الرسومات قليلاً، وسأعود في الحال.

شعرت بشعور غريب ممزوج بين الخوف والحيرة والذهول، لكن رؤيتي للأشكال الملونة التي كنت أراها أمامي أضفى إلي بعض الهدوء والسكينة..

استأذن الطبيب من "شمس" أن تخرج معه إلى غرفته ليتحدث معها على انفراد، أما هي فقد نظرت إليّ نظرة شعرت بها تخترق قلبي على الفور، كانت نظراتها تؤكد لي أنها بالفعل جزء مني، إنها ابنتي، فالعيون تُظهر ما نشعر به بصدق.

بعد خروجهما تغيرت الموسيقى تلقائياً لتتوافق مع حركة الألوان والأشكال التي باتت تظهر أمامي، كانت بالفعل تمنحني هدوءاً لم يسبق لي أن شعرت به، وكأنها تحرض تفكيري على النضوج أكثر، وتذكر التفاصيل بشكل أكبر، وتمنح عقلي مساحة مفتوحة للتفكير الحر بشكل أوسع...

بعد أقل من ربع ساعة عاد الطبيب مع "شمس" وترافقهما ممرضة، دخلوا الغرفة، ومن جديد جلس الطبيب قبالتي، وضع يده على يدي وقال لي بلطف:

- أرجو منك أن تسترخي بتفكيرك قليلاً.

ضغط على بعض الأزرار فتحرك السرير ليجعلني مستلقياً على ظهري، ثم وتلقائياً ارتفعت الشاشة الشفافة لتصبح بموازاة نظري.

أمسك بجهاز يشبه الجوال كان مع "شمس"، لكن شكله أقرب إلى شكل المستطيل، ورقيق بصورة أشبة برقاقة زجاجية شفافة.

ضغط على عدة أزرار في الجهاز الذي يحمله، فظهرت على الشاشة صورة تشبهني إلى حد كبير، تشبهني أكثر مما أنا عليه الآن.

كنت أحمل طفلة صغيرة بحضني، وبجانبي وقف طفل آخر، ووقفت معنا امرأة عرفتها على الفور، إنها "صوفيا"، كانت ضحكاتنا وأشكالنا تؤكد أننا أسرة واحدة..

نظر الطبيب إلي وقال:

- سيد برهـان أريد منك أن تتأمل هذا المكان، انظر إليه جيداً، وحاول تذكر أين التقطتْ هذه الصورة؟

شعرت بموجة من الضحك والسخرية، مع حزن دفين يلسع قلبي، ثم قلت له:

- أنا لا أتذكر هذه الصورة، ولا أعرف أين التقطت، كل ما أعرفه أن هذا الشاب يُشبهني بشكل كبير، وهذه المرأة تشبه صديقة لي اسمها صوفيا..

حين نطقتُ باسم "صوفيا"، على الفور اندفعت "شمس" وقالت:

- نعم، إنها أمي صوفيا.. إنها كانت زوجتك يا أبي، وهذه أنا كان عمري هنا سنة ونصف، وذاك هو أخي آدم، عمره هنا ثلاث سنوات ونصف تقريباً، ألا تذكره يا أبي.. إنه آدم..

عدتُ فنظرت إلى الصورة أمامي، كانوا صادقين بما يتكلمون به، أما أنا فقد بدأت أُكذّب نفسي.. فقلت حزيناً..

- أقسم لكم أنني لا أذكر أياً من هذا الكلام، لا أتذكر أنني تزوجت، أو أنني أنجبت أطفالاً، ما أذكره هو فقط ذلك التاريخ الأسود من عام ألفين وستة، ثم إنني أذكر أن صديقي اسمه آدم، وليس ابني وقد توفي بحادث سيارة..

فوراً عادت شمس واندفعت قائلة:

- نعم صحيح، أنت أسميت أخي على اسم صديقك الذي كنت تحبه حدّ الجنون، ولكنه مات بحادث سيارة، اسمه آدم، وقلت لنا إنه كان عاش في نفس الحي الذي كنت تعيش فيه، أما أنا فقد أسميتني على اسم أمك، رحمها الله..

عدتُ وفتحت عينيّ على وسعهما من جديد:

- ماذا قلتِ... هل ماتت أمي؟

اقتربت "شمس" من سريري، ووضعت وجهها على صدري، ثم أخذت تبكي وتتكلم بحرقة:

- أبي، أرجوك لا أريد أن أخسرك.. أرجوك حاول التذكر، لم يعد لي في هذه الحياة القاسية سواك، أرجوك، أنا أحبك حدّ الجنون..

حين سمعت كلمتها للمرة الثالثة "حد الجنون" رفعتُ رأسها إليّ، ونظرت إلى عينيها، كنت أبكي معها، أبكي بدموع تحرق فؤادي من هذا الضياع الذي وصلتُ إليه، ثم قلت لها:

- "شمس" أرجوكِ، أرجوكِ يا حبيبتي لا تقولي كلمة "حدّ الجنون" مجدداً..

تذكرت كلمات أبي التي قالها لي ليلة أمس وتابعت قائلاً لها:

- إياكِ أن تتعلقي بشيئ حدّ الجنون، فكل حبّ نصل فيه حدّ الجنون هو الجنون بعينه.

حين شاهد الطبيب حالة "شمس" المنهارة، وشاهد بكائي، خرج من الغرفة على الفور هو ومساعدته، بينما استمرت الدموع الباردة من عيني "شمس" الباردة تنهمر على صدري..

شعرت وكأنها تخترق جسدي لتصل إلى قلبي فتعطره وتُطهره وتجعله نقياً كنقاء قلبها الحنون، كانت دموعها أصدق دموع شعرت بها في حياتي.

*****

في بعض حالات حدوث السيطرة على "الحلم الواعي" قد يحدث خلل وظيفي باضطراب في الشخصية، فتظهر أمام المرء شخصيتان، شخصية تعيش ضمن أحلامه الواعية متنقلة عبر الزمن، وشخصية أخرى تعيش واقعه مبتعدة عن أحلامه "الواعية"، وفي حال تعرضه مجدداً لحالة من حالات "الحلم الواعي"، أو لصدمة نفسية كبيرة، فقد تتبادل شخصياته الأدوار، فيبدو لمن حوله وكأنه فقد ذاكرته.

على أرض الواقع يوجد الكثير من الهواة المتحمسين لفكرة "الحلم الواعي" الذين يسعون لاكتشاف هذا العالم الافتراضي، وقرصنة أحلامهم من أجل حصولهم على مهارات مميزة، أو قيامهم بأمور خارج المألوف، أو أشياء تبدو وكأنها تسبق الزمن.

وأظهرت دراسات قام بها عالما النفس (أورسولا فوس) و(مارتن درسلر) أن نشاط الدماغ أثناء الحلم الواعي يقترن بالحركة السريعة للعين، ويزيد من نشاط الدماغ ليصل إلى مراحل متقدمة وكأنه يتنبأ بالمستقبل.

**عن موقع مجلة الجارديان**

**The Guardian**

**مقال: أسرار الحلم الواعي**

**The Mysteries Of Lucid Dreaming**

**Sun 27Apr 2014**

في كثير من الأحيان وحين نسير في الشارع ونمر بالقرب من شخص ما، ولسبب ما نشعر بوجود رابط بيننا، خاصة حين تتقابل أعيننا، وهذا ليس اشتباهاً، فهذا الشخص يمكن أن يعني شيئاً كبيراً في حياتنا، حيث أن أجسادنا لا تستطيع أن تحتوي إدراكنا بالشكل الكامل، إننا في كل يوم نلمس بُعداً مخفياً، وهذا البُعد يُشعرنا أننا أقوى من إطار المكان والزمان..

أسدل الليل ستاره، ومازالت "شمس" مستلقية على صدري، تنتحب بشكل خفيف، عرفت أنها فتاة مرهفة المشاعر والإحساس، ورقيقة جداً..

وضعت يدي السميكة الخشنة على شعرها ومسدتُ عليها بمشاعر أبوية صادقة اجتاحتني بشكل غريب، ثم رفعت رأسها وقلت لها بكل هدوء:

- شمس؛ ابنتي أريد أن أتكلم معك قليلاً.

على الفور رفعت رأسها، نظرت إلى عيوني وقالت متفاجئة:

- ابنتي.. هل قلت ابنتي.. هل تذكرتني؟؟

تنهدت بعمق كبير:

- لا يهم إن تذكرتُ أو لم أتذكر، ما يهم هو بماذا أشعر، فمشاعري الآن صادقة تجاهك وتجاه ما تحدثتِ به أكثر من أي مشاعر أخرى شعرت بها في حياتي.. أنا الآن أشعر أنني بالفعل والدك، وأنتِ ابنتي، لكن لدي طلب صغير، وأرجو أن تفعليه من أجلي.

مسحت بقايا دموعها النقية عن عينيها، ورفعت نفسها لتجلس على الكرسي قبالتي:

- تفضل يا أبي، أنت لا تطلب مني، أنت تأمرني، قل ماذا تريد؟؟

أغمضت عينيّ للحظة وتنفست بعمق، ثم قلتُ لها:

- أريد منكِ أن تخبريني كل ما تتذكرينه أنتِ عني وعن عائلتنا مذ كنتِ صغيرة.

ابتسمت ابتسامة رائعة ليظهر لي جمال وجهها وجمال ابتسامتها ونظرات عينيها وقالت:

- بكل سرور يا أغلى ما لدي..

اقتربت مني قليلاً، وبدأت تقول:

- أنتَ تزوجتَ أمي "صوفيا" عن قصة حب طويلة وشائكة بدأت حين كنتما في الجامعة، ورغم الكثير من المشاكل والمصاعب التي واجهتكما إلا أنكما توافقتما في النهاية وتزوجتها، ثم أنجبتما ولدكم الأول أخي "آدم" الذي قمتَ بتسميته على اسم صديقك العزيز الذي كان يسكن معك في نفس الحي، وبعد ذلك وبسبب الحروب المتتالية، انتقلتم إلى مدينة اسطنبول، حيث ولدتُ أنا، وقمتَ بتسميتي باسم "شمس" تيمناً باسم أمك رحمها الله.

في اسطنبول بدأتَ العمل في مجال الصحافة والكتابة، وحققت شهرة كبيرة من كتاباتك، ثم استطعنا شراء منزل صغير، كبرنا جميعاً في اسطنبول، درسنا وتعلمنا، أنا أدرس في كلية الطب قسم طب الأسنان، أما أخي "آدم" فتخرج من كلية التجارة، وسافر هو وخطيبته إلى فرنسا إثرَ تشجيعك له ليُكمل دراسته هناك..

حين كان عمري عشر سنوات قررتَ أنت وأمي الانفصال، فمشاكلكما الأسرية لم تهدأ يوماً، وبعد الانفصال سافرت أمي إلى أوروبا وتزوجت هناك.

بعد سفرها حزنتَ كثيراً وانطويتَ على نفسك في غرفتك لعدة أشهر..

ثم قررتَ وبشكل فجائي العودة إلى بلدك ومنزلك الصغير في دمشق، فسافرتَ وحدك، أما أنا كنت اتنقل بين دمشق واسطنبول حتى أنهيتُ داستي الثانوية.

ليلة أمس أحضرتَ سُلماً معدنياً، ودخلت تلك الغرفة المهجورة، صعدتَ السُلم باتجاه بقعة مصبوغة باللون الأسود، وحين سألتك ماذا تفعل قلتَ لي إنك تريد إصلاح مكان تلك البقعة وتغيير لونها القاتم ليصبح كلون الغرفة، وإنك تنوي وضع ضوء أبيض فوقها، فقلتُ لك هذا أفضل شيئ تقوم به، فهي بالفعل بقعة سوداء كبيرة وبشعة...

عندها ضحكتَ بصوتٍ عالٍ وكأنك تتذكر شيئاً ما، لكن وفجأة سقطت من أعلى السلم على ظهرك ورأسك، وغبتَ عن الوعي، على الفور أحضرتُك إلى هنا بمساعدة الجيران، وبعد أن أجروا لك الفحوصات اللازمة، قال لي الطبيب إن الصور البانورامية لحركة دماغك تُشير إلى فقدان جزئي للذاكرة، وستعود لك ذاكرتك في غضون ساعات، هذا كل ما حدث.

حركت رأسي مستغرباً من كلامها الذي لا أذكر منه شيئاً، ثم قلت لها:

- ماذا تعرفين عن أبي؟

تنهدت بعمق وقالت:

- أبوك!!! أنت لم تخبرنا عنه شيئاً، لكنني أذكر أنني سمعت جدتي تقول في إحدى المرات أنه تركككم وسافر وراء امرأة أخرى يُحبها.

أغمضتُ عينيّ وقد شعرت بألم جديد وكبير بدأ يعتصر قلبي، لقد فات الأوان، فقلت لها بحزن واضح:

- كم التاريخ اليوم؟
- إنه الأول من إبريل.
- أقصد كم العام؟

قالت باستغراب:

- نحن في عام ألفين وخمسين.

ابتسمتُ لها ابتسامة أشبه بابتسامة أولئك المجانين الذين لا يصدقون ما يرونه، ثم قلت لها:

- شمس، هل تريدين أن تعود لي ذاكرتي كاملة؟.
- بالطبع يا أبي.

أمسكت يدها الصغيرة والرقيقة وشددت عليها قائلاً:

- أرجوكِ يا ابنتي، يجب أن أعود إلى تلك الغرفة، وإلى تلك البقعة السوداء.

* * * * *

اليوم.. هو أول يوم فيما بقي لي من العمر.

**وليم شكسبير.**

* * * * *

بصعوبة بالغة استطعتُ إقناعها بضرورة عودتنا إلى المنزل، وهي بدورها استطاعت إقناع الفريق الطبي بذلك على مسؤوليتها الشخصية، وأخبَرتهم أنها ستتابع حالتي وتُطلعهم على كل التطورات، فالمكان هنا لا يناسبنا نفسياً..

ضمن سيارة المشفى المتطورة الغريبة والموجهة من الأقمار الصناعية، انطلقنا نحو الحي الذي كنت أسكنه منذ كنت صغيراً، كانت السيارة تسير دون وقود؛ بل من خلال بطاريات الليثيوم المتطورة والمشحونة للكثير من السنوات، هكذا عرفت منهم.

انقسمت المدينة البسيطة والجميلة إلى جزأين، أحدهما يحوي أبراجاً عالية وفاخرة تعمل على الطاقة الشمسية، أما الجزء الآخر فهو أحياء شعبية أو أثرية قديمة يسكنها ذوو الدخل المحدود.. أغلب السيارت حديثة هنا، وكهرباء الأبنية تعمل على الطاقة الشمسية وطاقة الليثيوم.

في السابق كان بيتنا ضمن المناطق السكنية الراقية والمناسبة في العاصمة، أما اليوم فيبدو أن حيّنا صار ضمن المناطق الشعبية والمُهملة..

لم يتغير بيتنا بشكل كبير ضمن الحي، لكن المدينة خارج هذه الأحياء هي التي تغيرت..

دخلنا الشقة، كانت حركة جسدي بطيئة، آلام جديدة أشعر بها للمرة الأولى في حياتي، ألم أسفل ظهري، وركبتي، وأكتافي، ودقات هزيلة في قلبي.

تجولت في الشقة الصغيرة بين الغرف والمطبخ، كل شيئ بدا وكأنه تغير وتبدل بلحظة واحدة، الشيئ الوحيد الذي لم يتغير هو ذكرياتي القريبة حول هذا المكان، رائحة أمي، ومُزاح أختي "سمر" ومشاكسة أخي بلال، دائرة من الجنون تدور في دماغي، كيف حدث كل هذا؟

فأنا أستذكر نفسي إلبارحة حيث كنت هنا في هذا المنزل وكل شيئ على ما يرام، اليوم وخلال أربع وعشرين ساعة من ذاكرتي مرت أكثر من أربع وأربعين سنة على هذا المكان، يبدو أنني بالفعل قد انتقلت عبر الزمن إلى المستقبل، انتقلت بجسدي لكن دون ذاكرة.

دخلت الغرفة المهجورة التي تحدثت عنها "شمس" بالفعل كانت مهجورة، إنها غرفتي، أشعلت بداخلي مشاعر ممتزجة بين الخوف والرهبة والاشتياق، رغم أنني لم أشعر بمرور الوقت عليها، لكن مظهرها بدا وكأن عشرات السنوات مرت عليها.

وقفت أسفل البقعة السوداء، نظرت إليها بشيئ من القدسية، ثم نظرت إلى "شمس" وقلت لها:

- أريد النوم هنا، وأرجو منك أن لا تعارضي تصرفاتي حتى إن بدت لك غريبة!.

حركت رأسها بالموافقة مع ابتسامة ملائكية بسيطة، وعلى الفور أحضرت حقيبة معدنية، فتحتها ليتشكل سرير معدني متين وعريض، ووضعت الفراش على السرير بشكل كلي ليصبح جاهزاً للنوم، ثم نظرت إلي وقالت:

- هل أُعد لك شراباً دافئاً.

- لا يا حبيبتي لا أريد شيئاً، فقط أريد أن أضمك إلى صدري.

حين سمعت كلماتي هذه، ألقت بنفسها على الفور بين ذراعيّ، وأخذت تُقبلني وتبكي.

أما أنا فقد ضممتها إلى قلبي بقوة، وأخذت أشتم رائحتها الزكية..

بدا لي أنني أحببتها خلال هذه الساعات القليلة أكثر من أي شيئ آخر في هذه الحياة، لقد وصل حبي لها حدّ الجنون، ولكن.. لن أسمح لحلم حيّ غريب أن يسلب مني كل تلك السنوات، وينقلني بذاكرة فارغة إلى زمن ليس زماني، بعد أن سلب مني ذاكرة تحوي أجمل ذكريات حياتي، وقدم لي أحداثاً لم أعشها بتفاصيلها، لم أشعر بفرحها وحزنها.

جلست على السرير الذي أعدته "شمس" للتو وقلت لها:

- لدي طلب أخير.
- أنت تأمرني يا أكثر مخلوق أحبه.
- أريد رؤية بقية تلك الصور التي حصل عليها الطبيب منكِ.
- بكل سرور..

جلست بجانبي، ونظرتْ إلى جوالها الزجاجي الغريب، فاستجاب لها على الفور، وبحركات بسيطة من إصبعها، ظهر ضوء من هاتفها ليشكل نافذة رؤية شفافة أمامي، وبدأت الصور تظهر تِباعاً وهي تشرح لي بضحكاتها العفوية تاريخ كل صورة، مكانها، وحالتها:

"هنا أنا وأنت.. هنا آدم مع جدتي.. وهنا آدم بعد أن أنهى تعليمة الابتدائي.. وهذه أنا مع أمي، وهذا أنت وأمي، وهذه جدتي حين صورتها وهي نائمة...."

كانت تلك الصور أشبه بعلاقات الحب المبنية على الذكريات دون ذاكرة! كانت أشبه بمن ينظر إلى نفسه من خلال عيون شخص آخر!.

*****

لقد أفقدنا العلم بوصلة الشعور الروحية بهذا الكون الذي يتماوج من حولنا بطاقتنا التي نمنحها له كل يوم زمني، إنه كون مصنوع منا نحن، ونحن جزء من هذا الكون وشركاء له في الوجود.

وهي تستعرض لي الصور، ودون سابق إنذار ظهر مؤشر أحمر مع صوت اهتزاز بسيط من شاشة هاتفها، نظرتْ إليه وقالت مبتسمة:

- إنها صديقتك الدكتورة سارة، تريد الإطمئنان عنك!!

فتحتُ عينيّ على أشدهما، وقبل أن أتحدث بأي كلمة، كانت شمس قد بدأت تتحدث معها، ثم طلبتْ منها أن تكلمني، أمسكت الشريحة الزجاجية، ووضعتها بالقرب من وجهي فانتقل الصوت بشكل تلقائي إلى داخل أذني، صوت صافٍ واضح وكأن من يحدثك يجلس معك ضمن غرفة معزولة صوتياً:

- ألو...

جاء صوتها الذي بالكاد ميزته، إنها صديقتي سارة.

- كيف حالك يا أبا آدم، لقد قلقتُ عليكَ كثيراً.
- هل أنتِ سارة.. سارة توفيق، التي كانت ضمن فريقنا شلة الجامعة؟
- برهـان، هل بدأت تُخرّف، هل أصابك الإزهايمر، ألم تعرفني، نعم أنا "سارة توفيق" صديقتك من أيام الجامعة، وقبل يومين التقينا ماذا بك!!!؟؟
- أرجوكِ اعذريني، يبدو أنني تعرضت لصدمة جعلتني أفقد جزءاً من ذاكرتي..

ضحكت بقوة وسخرية، تلك الضحكات التي تُطلقها الطاعنات في السن، ضحكات تجمع القوة والسخرية من سنون الزمن الثقيلة، ثم قالت:

- أعذرك.. أنا دوماً أعذرك، غداً صباحاً سآتي للإطمئنان عنك.
- نعم، نعم، ولكن أريد منكِ أن تستذكري معي شيئاً واحداً!!؟
- تفضل قل ما هو؟
- هل تذكرين زيارتك الأولى لي في منزلي هذا، وحينها قلتِ لي إنكِ تحبيني؟؟

عادت وضحكت بقوة وسخرية:

- نعم أذكر.. كنتُ بلهاء وحمقاء حينها..
- أرجوكِ، هل تستطيعن أن تتذكري ماذا حصل بعدها، وكيف التقينا؟..
- بالفعل أنت تهذي، يبدو أنك فقدت كامل عقلك..
- سارة أرجوكِ حاولي أن تتذكري.

تنهدت بعمق، تنهدت بقوة وكأنها تغور في خبايا التاريخ والزمن، تعود إلى الماضي السحيق، ثم قالت بنبرة صوتية حزينة:

- لقد امتنعت عن محادثتي عدة مرات بعدها، حاولتُ التواصل معك دون جدوى، ثم عرفتُ أن "صوفيا" عادت واتصلت بك مجدداً كعادتها بعد كل مشكلة، وأقنعتك بالعودة إليها، وهذا ما حصل، عدتما لبعضكما البعض، تزوجتما وسافرتما، وأنجبتما شمس وآدم، ثم رَمتكَ واستغنت عنك، وذهبتْ لتتزوج شخصاً آخر، وفي الحقيقة أنت تستحق ما حصل معك.

غارت عيوني بالدموع بعد كلامها الثقيل هذا، ثم قلتُ لها بتأسف:

- نعم معكِ حق، أستحق ما حصل معي.
- برهـان غداً سآتي للإطمئنان عنك، حاول أن ترتاح قليلاً، ستعود وتتذكر كل الأمور مع مرور الوقت، هكذا قالت لي "شمس" بعد أن طمئنها الأطباء، فلا تقلق..
- سارة، أريد أن أقول لكِ شيئاً آخر!!
- تفضل؟؟!!
- أنا أحبكِ.

بعد أن نطقتُ تلك الكلمة، أنهت سارة المحادثة على الفور، وأخذت "شمس" الجوال من يدي، ثم خرجت من الغرفة مسرعة، أحسستُ أنها تريد البكاء مع نفسها.

تحركت ببطئ إلى باب الغرفة وأغلقته، ثم عدتُ وتمددتُ على سريري في غرفتي التي باتت مهجورة، نظرت بعمق إلى تلك البقعة السوداء، كانت الساعة تقترب من منتصف الليل.

بدا لي الأمر سهلاً هذه المرة، أغمضت عيني وجلبتُ من ذاكرتي صور النباتات في تلك المخطوطة، استشعرت طاقتها وشكلها، انتظرت قليلاً، أخذت جفوني تُغلق، وبدأت أغفو، استحضرتُ في عقلي ضرورة ما أريد، فما أريده هو أن لا استيقظ هنا، بين أناس يبدون كالغرباء، قادمين من المستقبل، لا أذكر عنهم شيئاً.

لا أريد أن أستيقظ وقد مضى من عمري عشرات السنين التي لم أشعر بها، لم أشعر بصعوبتها أو سهولتها، لم أشعر بحلوها أو مرها.

قبل أن أغفو وأدخل عالم الأحلام، حاولت فتح جفوني بصعوبة شديدة، كان ضوء خافت بسيط يشعَ خلف تلك البقعة السوداء.

لكن هذه المرة لم أرَ خيطاً ولم تتسلق روحي وصولاً إلى فجوة الحفرة السقفية..

بل ظهرت على الفور وكأنها نفق أسود طويل يغور في عمق السقف..

ظهر "سـيمان" مجدداً من خلال ضوء الفوهة، نظر إلي وكأنه يُطل من نافذة دائرية صغيرة..

حين شاهدته شعرت بالفرح والخوف والحزن، وقلت له على الفور:

- سـيمان ماذا حدث معي؟ لماذا أنا هنا الآن..؟ كيف حدث ذلك؟، لقد استيقظت في زمن آخر!!.

ابتسم ابتسامة غريبة وقال لي:

- لا أنت لم تستيقظ في زمن آخر، هو زمانك ومكانك وحياتك التي عشتها بكل تفاصيلها، لكن الفترة التي قضيتها في حلمك الحيّ والواعي هي التي جمدت لديك ذاكرتك، وأنقذت شخصيتك المنفصمة، فعشت في مكانين ضمن زمن واحد.

كان كلامه غريباً لم أفهم منه شيئاً:

- لم أفهم شيئاً مما تتحدث به، أمضيتَ كل حواراتك معي تسترسل بالكلام، وحين جاء الوقت لتسترسل صرتَ تتكلم بالألغاز المختصرة.

حركَ رأسهُ بالموافقة وقال مسترسلاً:

- والدك هو الذي أنقذ ذاكرتك، فقد كنت على وشك أن تُصاب بفصام حقيقي في شخصيتك، لكن حين دخلتَ عالم الأحلام الواعية، عاشت شخصيتك الحقيقية حياتك بالشكل العادي، كبرت وتزوجت وسافرت وأنجبت أطفالاً، وكأنك لم تلج عالم الأحلام الواعية، أما شخصيتك ذات الحلم الواعي، فقد عاشت كل تلك السنوات خلال ساعتين فقط في حلمك الذي ولجتَ إليه.

شعرتُ وكأنني بدأت فهم بعض الأمور الغامضة التي تحدث لنا، والتي بالفعل كما قال أبي: "كثير من الأغبياء الذين لم يصلوا إلى معرفتنا، يظنون أننا مرضى، فقط لأننا لا نُشببهم بالتفكير وبقدراتهم المحدودة".

- سـيمان.. أريد العودة

نظر إلي نظرات تبدو كالعتاب، ثم قال:

- لقد أخبرتك سابقاً أنك ستعيش في عدة أبعاد من الوقت ذاته، وهذا بالضبط ما حدث معك.
- أرجوك كفى.. أريد العودة.
- لكن عودتك ستمحي كل شيئ مررتَ به.
- لم أفهم ماذا تقصد..
- برهـان صديقي سيطرتنا على عقولنا تمنحنا قوة لانهائية، فنمر عبر الأجيال برحلة أشبه بالسفر عبر الزمن، كما حدث معك، وهذه السيطرة تزيد من وزن الطاقة في أدمغتنا، فننقل المعلومات بين الأجيال، ولأن الوقت هو أساس وحدة القياس في زماننا هذا

ستكون عودتك بما تحمله من معلومات الفتيل الذي قد يشعل الفوضى وعدم الاستقرار في حياة كل من يعاصرك؟!!

- هل تقصد أنني سأعود دون ذاكرة؟

حرك رأسه ممتعضاً بالموافقة وقال:

- عمر حياتنا ملايين السنين، وفي كل مرحلة تفكير وتطور عقلي وزمني لعقولنا، نكون قد قدّمنا للكون الشيئ الذي من أجله خُلقنا، وأنا يا صديقي نذرت نفسي للترحال ونقل المعلومات بين الأجيال.

مدّ يده نحوي، فأمسكتها، أطبق على يدي بقوة، شعرت وكأنه سيسحب روحي من جسدي، أغمضتُ عينيّ، ثم شدني نحوه بقوة وسرعة كبيرة، سرعة أشبه بسرعة الضوء.

* * * * *

"العلم اليوم محاط بالسلطة والنفوذ والمال، وهو ما جعلنا نتجه نحو المادة أكثر تاركين جوانب معرفتنا الروحية، فبتنا في عصر تحكمه المعرفة الجاهلة"

*****

على متن الطائرة الكبيرة، المعلقة بين السماء والأرض تسلل إلى جسدي شعور بارد غريب، فأسندتُ رأسي إلى الخلف مسترخياً، لكن بدني اقشعرَّ منتفضاً من هذا الإحساس.

شعرتُ وكأن هذه اللحظة التي أمر بها الآن قد تكررت معي سابقاً، رغم أنها المرة الأولى في حياتي التي أسافر فيها على متن طائرة..

شعرتُ وكأنني شاهدتُ هذا من قبل، كأن الصور تتكرر بحذافيرها أمامي، لون مقاعد الطائرة، صدى أزيز محركاتها من الداخل، نفس المُضيفة ونفس ابتسامتها ونظراتها وهي تقدم لي العصير...

وَمَضَ هذا الإحساس فجأة داخل دماغي، إحساس غريب، واضح، وكأنني أعيش مشهداً للمرة الثانية، مشهداً كنت قد نسيته والآن أعود فأستذكره، ثم رافق شعوري هذا حدسٌ دقيق وكأنني أعرف ما سيحصل بعد قليل.

إنها المرة الأولى التي أفارق فيها والدتي "شمس" الأم التي لا أستطيب طعاماً إلا من طهيها، وأختي "سمر" الطالبة المجتهدة في المرحلة الثانوية، وصغير عائلتنا "بلال" المشاكس المتعلق بألعاب الفيديو، وحبيبتي "صوفيا" التي وعدتها أن أعود لخطبتها بعد أن أبدأ العمل هنا في "الكويت" بلاد الشمس والنفط.

*****

نحن مجانين إذا لم نستطع أن نفكر..

ومتعصبون إذا لم نرد أن نفكر...

وعبيد إذا لم نجرؤ أن نفكر..

**إفلاطون**

## تمت

* * * * *

"حين نقول:

أنا أعرف هذا الشعور جيداً، وكأنني شاهدتُ هذا من قبل...

حينها فقط يكون الزمن قد اختل من حولنا للحظة.

إنها قصة:

شُـوهِدَ مـن قبـل

حسـام الغزالي
٢٠٢١